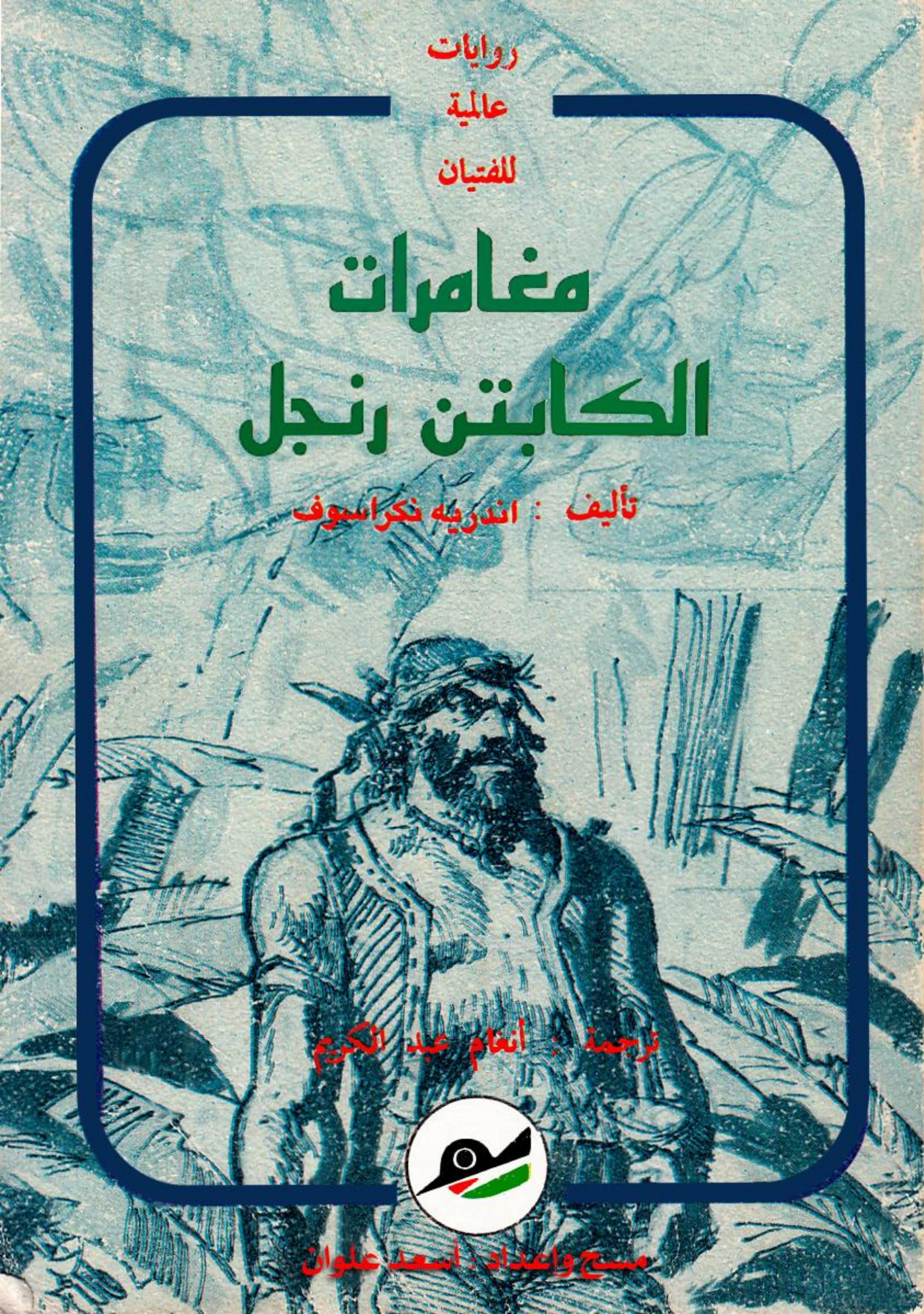


روايات عالمية للفتيان

مغامرات الكابتن رنجل

تأليف : اندريه نكراسوف

ترجمة : أنعام عبد الكريم

مسح واعداد : أسعد علوان

السعر ٦٥٠ فلس

[redacted]

شركة المنصور للطباعة المحدودة - تلفون ٤١٦٣١٥٣

مغامرات

الكابتن رنجل

مغامرات
الكابتن رنجل
تأليف : اندريه نكراسوف
ترجمة : أنعام عبد الكريم
الطبعة الثـــانية ١٩٨٨ م

الناشر : وزارة الثقافة والأعلام / دار ثقافة الأطفال
ص.ب ٨٠٤١ بغداد العراق

سلسلة روايات عالمية للفتيان تصدر عن قسم النشر
في دار ثقافة الاطفال
المدير العام رئيس مجلس الادارة : فاروق سلوم
سكرتير التحرير: فاروق يوسف

مسح وإعداد : أسعد علوان

مغامرات الكابتن رنجل

المقدمة

لأربعين سنة مضت وقع تحت يدي كتاب « مغامرات الكابتن رنجل » بخط «اندريه نكراسوّ » ، فقرأته. وكان هذا أول لقاء لي بالكابتن الجسور وصديقيه «لوم» و«فوكس» وقاربهم الشراعي «ريج» الذي نقلهم على ظهره في رحلة بحرية حول العالم.

لقد تغير العالم منذ ذلك الوقت، وأصبحت خارطة كوكبنا هذا مختلفة الآن، فقد صعد الانسان الى الفضاء الخارجي ، وشقت كاسحات الجليد طريقها نحو القطب الشمالي، وأوجد الناس طرقا جديدة في التسلية، كما أن اهتماماتهم أخذت منحى آخر.

ومع كل ذلك لم يغرق اليخت الصغير «ريج » في محيط أدب الأطفال، ومازال الكابتن «رنجل » يوجه دفته الى قلوب قرائه الصغار.

كان الكابتن «رنجل » ذلك البطل العزيز للملايين من الفتيان والفتيات كالعابث الصغير «توم سوير » والداهية روبنسون كروسو ».

القراء الأوائل لهذا الكتاب هم أجدادنا الآن. كما أن الطبعة الاولى له أصبحت مرجعا نادر الوجود. ولكن الكابتن رنجل » نفسه لم يفكر قط بالاعتزال. انه مايزال يقوم بعمل مهم في تسلية القراء الصغار وتعليمهم مواجهة مشقات الحياة والابتسامة على وجوههم.

من يفتح هذا الكتاب أول مرة، سيتعلم كثيرا مما هو جديد ، كما أنه سيخوض في مجال قد يكون بعيدا عن أجواء حياته ....انه البحر.

نكراسوف

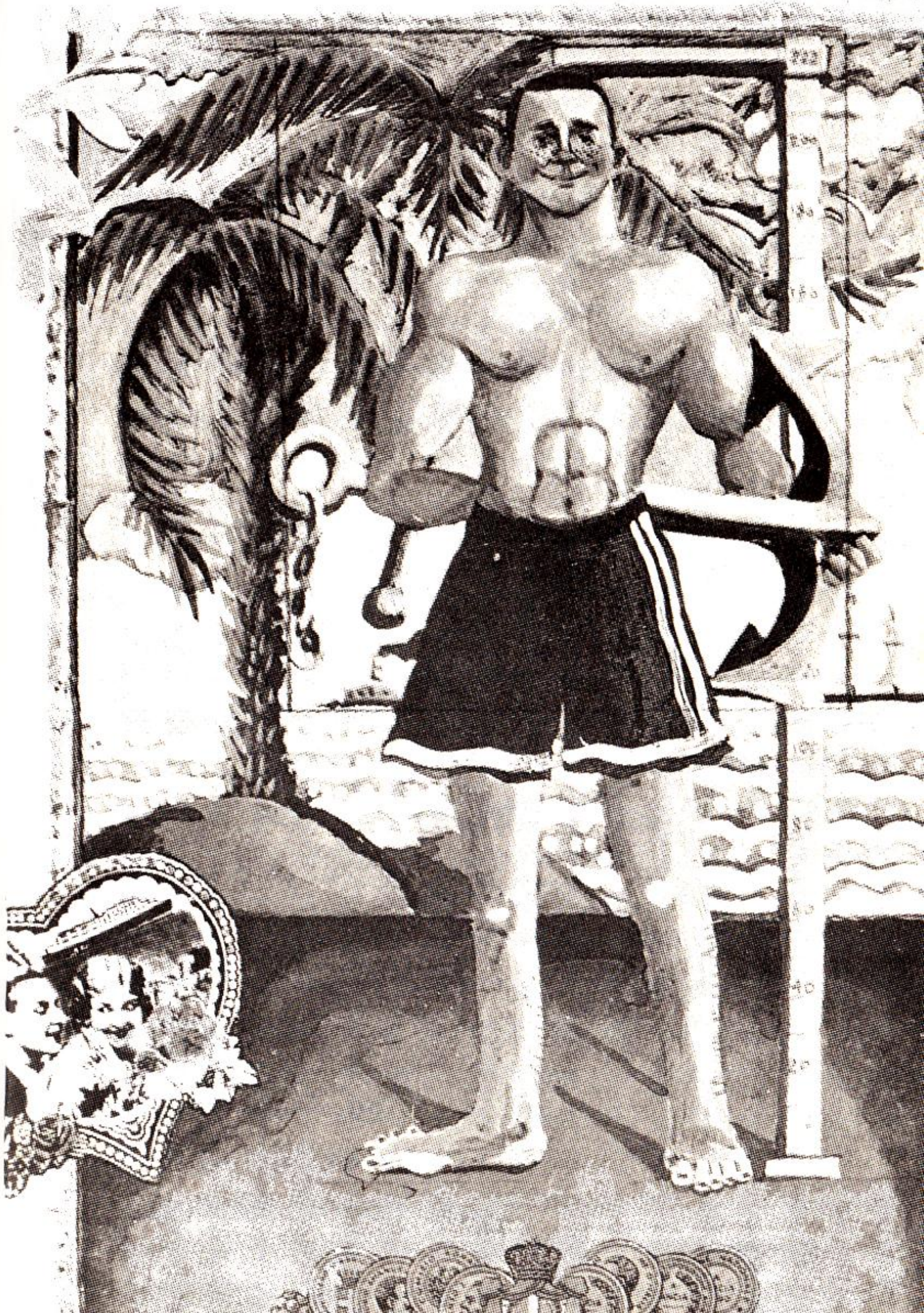
بطل العمل الاشتراكي
والحائز على جائزة نوبل
ترجمة: انغام عبد الكريم التميمي

الفصل الاول

حيث يقدم البطل نفسه الى القراء

كان يشرف على درس البحرية في مدرستنا الأستاذ «كرستوفر رنجل». في أول درس لنا معه قال: «البحرية علم يساعدنا في اختيار أفضل المسالك البحرية وأكثرها أمنا. ولكنها ليست علما محدداً ودقيقاً. وللاضطلاع به تماماً، يجب أن يسعى المرء لاكتساب خبرة مطولة من الابحار الفعلي ...»

هذا الحديث التمهيدي أحدث نقاشا حامياً بيننا نحن



التلاميذ. وشطرنا الى فريقين. أكد فريق بأن «رنجل» كان ذئبا بحريا قديما ولكنه تقاعد الآن. انه يعرف البحرية بكل دقائقها ويدرسها بنحو رائع، ومن الواضح أن له خبرةً في الابحار. ولاريب أنه جاب عباب البحار في طول العالم وعرضه. ولكن كان هناك عدد غير قليل من المتشككين الذين جزموا بأن معلمنا لم يذهب أبدا الى البحر. ولكي يبرهنوا على ذلك دعونا نشاهده عن قرب.

كان «كرستوفر رنجل» قصير القامة، ممتلئ الجسم، يرتدي سروالا رصاصي اللون مطوقا بحزام مطرز، شعره ممشط الى الأسفل باتجاه جبهته، وتدلت من رقبته نظارة أنفية. صوته مكبوت. يبتسم كثيراً ويستعمل السعوط، ومن طبيعته أن يفرك راحتيه ببعضهما. وعموما فانه يبدو صيدليا متقاعدا أكثر منه قبطانا بحريا.

وفي أحد الايام، ولكي نفض النقاش بيننا، طلبنا من الأستاذ «رنجل» أن يحكي لنا شيئا عن خبرته البحرية الواسعة، فقال والابتسامة تعلو شفتيه:

« آه » كلا، ليس في وقت الدرس.»

ثم أخضعنا لامتحان عسير بدلا من المحاضرة التي كان مقررا القاؤها.

عندما خرج من الصف محملا بكراساتنا تحت ذراعه، تركنا متحدين في الرأي. فهو ليس مثل كل البحارة لأنه حصل على خبرته الملاحية من دون أن يتكبد عناء مغادرة اليابسة. وحدث مصادفة أن توقف عن المجيء الى الدرس ثلاثة أو أربعة أيام بعد اختباره لنا. ثم سمعنا أنه نسي معطفه في الحافلة وعاد الى البيت مبتلاً، فأصابه البرد وارتفعت درجة حرارته. كان الامتحان الربيعي على الأبواب، ونحن الطلاب كانت بنا حاجة لكراساتنا. لذا أوفدت أنا بصفتي مراقب الصف لزيارته واسترجاع الكراسات.

اتجهت حسب العنوان، وحين وصلت شقته، طرقت بابها. وبينما كنت أنتظر الباب ليفتح، رسمت في مخيلتي صورة للربان « رنجل » راقدا في سريره بين كومة من الوسائد أحمر الأنف والأغطية تعلوه تلالا.

نقرت على الباب ثانية، لاجواب. دفعت الباب الموارب ودخلت، فصدمت بالمفاجأة. وبدلا من رؤيتي للصيدلي المتقاعد الذي كان يجلس خلف المنضدة ويستغرق في قراءة الكتب القديمة، شاهدت قبطانا بحريا مخيفا في بزته الكاملة تتدلى منها كمية أشرطة ذهبية. كانت

نظارته على عينيه، أما شعره، فشعث، وحتى أنفه المحمر كان يعبر عن الشجاعة والتصميم.

على المنضدة أمام القبطان كان هناك حامل خاص ثبت عليه مركب شراعي بصوار طويلة وأشرعة بيضاء ثلجية. وانطرحت بجانبه لفائف الخرائط. رأيت على الأرض جلد فقمة برأس وأنياب اتخذه رنجل كسجادة. أما في زاوية الغرفة فقد اتكأت « مرساة » التفت عليها بعض السلاسل الصدئة. وهناك على الحائط علق سيفا مقوسا ضخما. ووقعت أنظاري على مجموعة أخرى من الغرائب لم أجد الوقت الكافي لملاحظتها.

حين دخلت، رفع « رنجل » رأسه، ثم وضع علامة على الصفحة التي وصل اليها. بعد قليل نهض من كرسيه وخطا نحوي وهو يترنح وكأنه في عاصفة.

قال بصوت مرعد وهو يرفع يده: « مرحبا بك في عرين قبطان البحر « كرستوفر رنجل »! من الذي أراه ....؟» .

كنت مرتبكا تماما، فقلت بتعلثم: «لقد بعثني الزملاء بخصوص الكراسات يا أستاذ.» قال على الفور: « آسف. سخف مني ألاّ أعرفك. انه المرض والذاكرة لم تعد كما كانت، ولكنني أتحسن على كل حال. قلت الكراسات؟

ثم بدأ يبحث بين حاجات منضدته. وأخيرا أخرج مجموعة من الكراسات وضرب براحة يده عليها، فتطاير الغبار. قال بعد أن عطس بقوة: هذه هي. أجوبة ممتازة بلا استثناء. نعم، ممتازة! تمنياتي! ستكونون مسلحين بمعلومات كاملة عن علم البحرية عندما تركبون البحار تحت راية التجارة الملاحية. ستقومون بعمل مفيد بجانب الحياة المثيرة الرائعة. آه أيها الشاب. انني أحسدك على المناظر الخلابة والانطباعات الرائعة التي تنتظرك!» ثم أضاف كالحالم: «الحمامات، المناطق الاستوائية، السفن العظيمة ....» ثم قال هائما في ذكرياته: « لقد فتنتني ذلك قبل أن أشم رائحة البحر وأخرج اليه.»

تعجبت وقلت ومن دون تفكير: « وهل خرجت الى البحر ؟»

أجاب على الفور: «طبعا! وماذا تعتقد إذن؟ لقد قمت بما يكفي من الرحلات البحرية. لقد خرجت في رحلات حول العالم ليس لها نظير على ظهر اليخت مائة وأربعين ألفا من الأميال. موانئ لاحصر لها، والاف المغامرات الوقت قد تغير الآن فكل شيئ يبدو بمنظار مختلف الآن، ولكن حين يمعن أحدنا نظره في أعماق الماضي، يجب عليه

التسليم بأن الرحلات غنية بكثير من المتع وكثير من الفوائد، وبأن هناك مايجب تذكره ونقله الى الأجيال الأصغر. لماذا لاتجلس ؟»

ومع هذه الكلمات دفع القبطان «رنجل» نحوي بفقرات حوت . جلست عليها وكأنني أجلس على كرسي ذي مسندين في حين استرسل الأستاذ في قصته.

الفصل الثاني

حيث يتحدث القبطان «رنجل» عن رفيقه الاول «لوم» واشياء اخرى عن البحرية

عندما كنت شابا ، بدأت اضجر من حياتي التي قضيتها جالسا في حجرتي الصغيرة دونما نشاط أو حركة . لذا قرّرت أن أُجول في البحار البعيدة . كانت رحلة عجيبة شغلت العالم بأسره مدة طويلة .

لست على عجل ، أليس كذلك ؟ عظيم ، اذن سأُخبرك بالحكاية منذ البداية .

كنت آنذاك شابا ، ولكنني لم أكن قليل الخبرة . لقد عشت وجمعت من الخبرة مايكفي . كان باستطاعتي الحصول على سفينة بحجم مناسب ، ولكن أفضل السفن كانت تقوم برحلات بعيدة في ذلك الوقت . وبما أنني لاأحتمل الانتظار ان وضعت في رأسي شيئا . فلأذهب الى الجحيم ، هذا ماقررته ، وسأقوم بالرحلة على ظهر يخت شراعي لم أكن أمزح عندما قلت بأنني سأطوف البحار على ظهر يخت شراعي .

لذا مضيت في البحث عن يخت مناسب ، ولحسن الحظ وجدت ماأبحث عنه على الفور ، وكأنه صنع خصيصا لأجلي .

وعلى وجه الدقة ، كان اليخت محتاجا لبعض الاصلاحات التي تمت تحت اشرافي وانتهت بأحسن حال . حيث نصب له صار جديد ، وثبتت له أشرعة كذلك . واستبدلت الألواح الخشبية وجددت المتاريس وها قد أصبح اليخت الآن ، وكما يقولون «قشر بيضة تحت رحمة الظروف الجوية» .

لست الذي يثير ضجة حول خططه الخاصة ، لذا أرسيت سفينتي على الساحل بهدوء وغطيتها بقماش

مشمع ، ثم بدأت بعمل التجهيزات الأخرى للرحلة .

وكما تعلم ، ان نجاح مغامرة من هذا النوع يعتمد بنحو خاص على الطاقم . هذه الحقيقة دفعتني الى بذل جهد عظيم في سبيل جمع رفاق ومساعدين لي لمشاركتي مشقة الرحلة ومصاعبها . بهذا أيضا كنت محظوظا ، فقد برهن «لوم» رجولته وكونه ثروة لاتثمن . وقس أنت وحدك ، فطوله سبعة اقدام ، وصوته الذي يشبه صفارة الباخرة . قوته غير اعتيادية وكذلك قدرته على الاحتمال . أمّا كفاءته وتواضعه المدهش ، فلا تجدهما الاّ في ملاحي الدرجة الاولى .

الاّ ان شيئا واحدا كان يعيبه ، وهو جهله لأية لغة أجنبية مما يعتبر جانبا مهما في الرحلات الخارجية . ولكن هذا العيب لم يثبط من همتي ، لأنني قيمت حسناته الأخرى بالمقابل . فكرت قليلا ، ثم صممت على تعليمه اللغة الانكليزية في غضون الشهر القادم . فماذا تظن ؟ لقد تعلمها في أسابيع ثلاثة لاأكثر .

لقد اتبعت طريقة جديدة في التعليم ، واستعنت بمعلمين اثنين لصديقي الجديد «لوم» . أحدهما علمه الانكليزية من بدايتها ، والآخر علمه الأبجدية الانكليزية

من نهايتها . وسارت الأمور كما قدرت لها . فبعد مضي ثلاثة اسابيع ، أرسل الي «لوم» يخبرني بأن الاستاذين التقيا في منتصف الأبجدية ، وهكذا أنجزت المهمة . عندئذ حددت يوما للابحار ، فقد ضيعنا مايكفي من الوقت .

وأخيرا حانت اللحظة المنتظرة . كان طبيعيا أن نغادر اليوم من دون أن يلاحظنا أحد ، ولكن وقتئذ كان يخت ضخم يوشك أن يقلع ، وقد غصّ الشاطئ بزحام شديد ، فالرايات ترفرف ، والموسيقى تصدح . انه لتوديع عظيم . وقفت قرب الدفة وأصدرت أمري :

– «إرفع الشراع الرئيس ! لنبحر ! الى الأمام !»

نشرت الأشرعة وكأنها أجنحة بيضاء تعبث بها الرياح ، ولكن السفينة ظلت مستقرة حيث هي ، فأدركت أنني يجب أن اقوم بشيئ في الحال . في تلك اللحظة مر بنا أحد زوارق السحب ، فالتقطت مكبر الصوت وصرخت فيه :

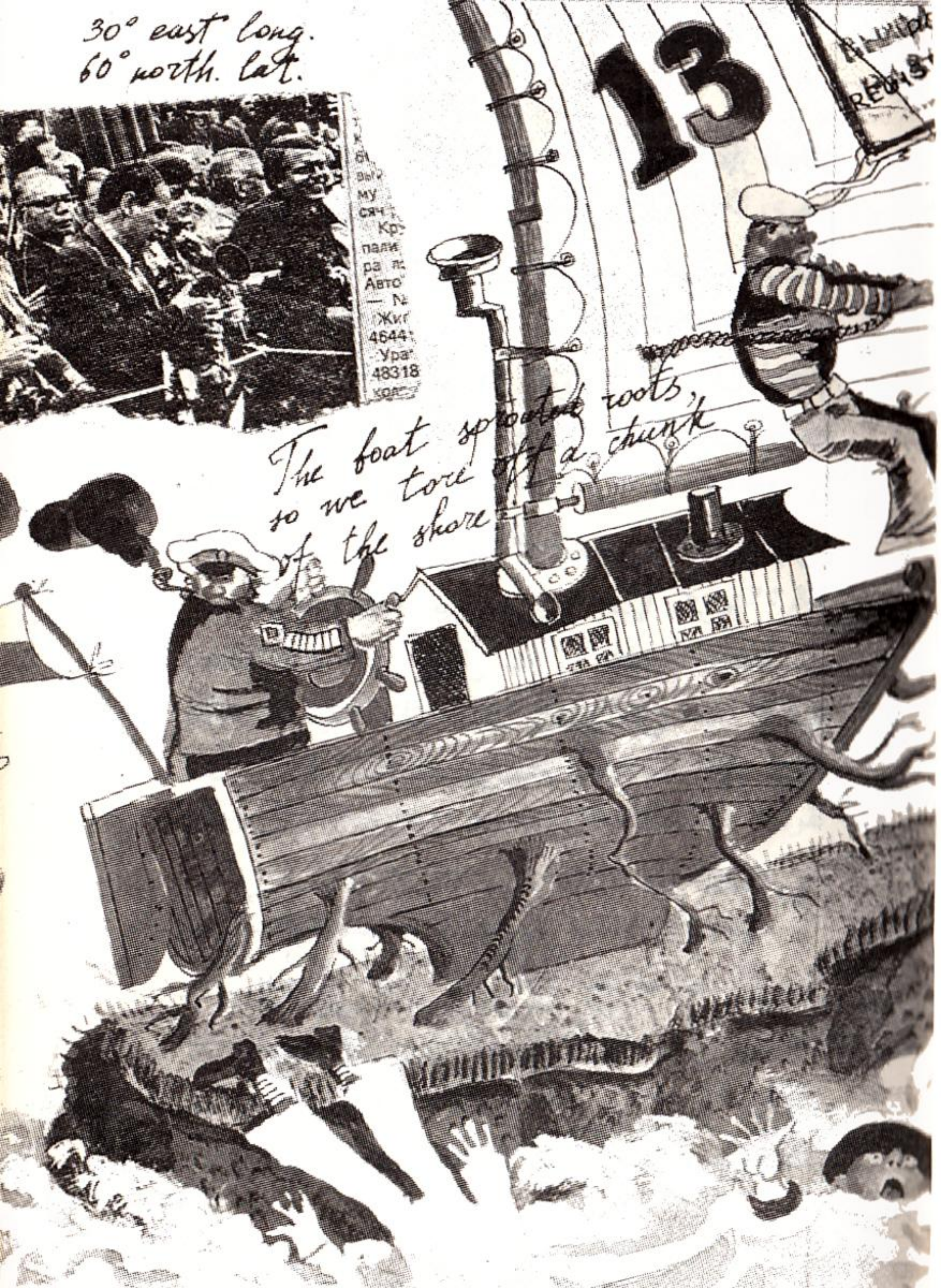
– «اهوي . . . . . يامن على الزورق ! امسك الحبل واسحبنا ، أيمكنك ذلك ؟ !» قام رجال الزورق بتثبيت حبل سميك ، وبدأوا بالسحب ، ولكن محاولاتهم باءت

بالفشل ، ولم يتزحزح اليخت من موضعه انجا واحدا . ألل‍عنة !

وعلى حين غرة علا صوت صاخب قفز بعده اليخت الى الأمام . سقطت على اثر ذلك وتقلبّت في سقطتي حتى ارتطم رأسي بالسارية . فقدت الوعي دقائق وعندما أفقت كان شكل الساحل قد تغير بطريقة لم أستطع تعليلها ، ولم يعد الزحام على اليابسة ، وانما كان اليخت يشق طريقه في المياه الضحلة ، وهناك كشك للمرطبات يعوم ببطء وقد جلس فوقه شاب منفرج الساقين ليصور الأحداث .

بدا اليخت وكأنه جزيرة خضراء . دققت النظر ، فتوضح لي كل شيئ . لقد استعمل النّجارون ألواحا خشبية طرية ، وفي غضون مدة الصيف هذه ، أنبتت الألواح جذرا وبراعم خضراء . في الحقيقة كنت أسائل نفسي عن الشجيرات الخضراء التي نمت بين سفينتي والشاطئ .

ألذي حدث أن زورق السحب كان صلبا ، متينا والحبل سميكا ، قويا ، فسحب السفينة بشدة وسحب معها بقعة من ارض الشاطئ مع شجيراته . وهذا تحذير



لكل بنائي السفن الآن يستعملوا ألواحا خشبية طرية . كان حادثا بغيضا ، ولكن لايهم مادامت لاتوجد خسائر في الأرواح .

ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ أنزلنا المرساة وقضينا اليوم كله ننظف جدار السفينة ، فانت لاتستطيع الابحار برفع الشجيرات هذه ، فان لم يجعل منك الصيادون أضحوكة ، فان الأسماك ستفلق جوانبها من الضحك .

غطى البلل رفيقي «نوم» كما غطاني ، وأنهكنا التعب قبل انهائنا العمل . وعندما حل المساء ، سمحت لـ «لوم» بالنزول الى المقصورة وأخذ قسط من الراحة في حين بقيت أنا في نوبة الحراسة . كنت وحيدا على ظهر السفينة ، غارقا في أفكاري ، أرسم لنفسي السعادة التي سأجنيها من الرحلة ، وأحاول أن أصور مشاقها وصعوبتها . لقد حملتني تأملاتي بعيدا جدا بحيث أنني لم ألاحظ كيف انقضى الليل .

حمل الي الصباح صاعقة أخرى حين جردت سفينتي من اسمها ! ربما تقول وما الضير من تبديل الاسم ؟ أنت مخطئ ياعزيزي ، فاسم السفينة مهم جدا كاسم الرجل تماماً . أنا مثلا ، اسمي «رنجل» تخيل أن أحدا ناداني

«كتن* Kitten» ، فهل تتصور قبطانا يخوض غمار البحار اسمه «كتن Kitten» ؟

الشيء نفسه ينطبق على السفن . سمها «فالينت* Valiant» أو «دونتلس** Dauntless» ، سيتحطم الجليد بنفسه ليسمح لها بالمرور . لكن ان دعيتها «تب*** Tub» فستكون مطابقة لاسمها ، وستسير حتما في الجو الهادئ فقط .

لذا نقبت في أكوام من الأسماء قبل أن يقع اختياري على أحدها لأطلقه على سفينتي . سميتها «كريج**** Courage» ، اسم جميل لقارب جميل ! استعملت حروفا نحاسية صقلتها وثبتها بنفسي على جزء السفينة الخلفي . كان بامكانك رؤيته من على بعد ميل عنها ، وهذا ماأردته .

في الصباح التالي ، وبعد ذلك اليوم المنحوس ،

---

* كتن : وتعني هرة صغيرة بالانكليزية .
* فالينت : وتعني شجاع بالانكليزية .
** دونتلس : وتعني قاهر بالانكليزية .
*** تب : مركبا قديما بالانكليزية .
**** كريج : وتعني شجاعة بالانكليزية .

وقفت على ظهر السفينة غير قادر على فتح أجفاني بعد سهري تلك الليلة . كانت الريح ساكنة ، والميناء مايزال سابقا ، وفجأة اقترب (لنش) بخاري وألقى الي أحدهم برزمة من الجرائد . الغرور رذيلة حتما ، ولكننا بشر أولا وأخيرا ، ومن الطبيعي جدا أن يأخذني الفضول كي أرى مايكتبون عنا . لذا فتحت احدى الجرائد وقرأت :

«حادث الأمس المؤسف في بداية رحلة عالمية قد تكون فاتحة للتعريف بالقبطان رنجل الذي أعطى سفينته اسم . . . .»

ارتبكت ، تحيرت . . . . خطفت صحيفة أخرى ، ثم ثالثة . . . . وأخيرا وقع بصري على صورة تمثل رفيقي «لوم» واقفا الى جانبي على ظهر اليخت ، وعبارة تحتها تقول : «القبطان رنجل وسفينته «ريج Rage»التي سيقوم على متنها بـ . . . . . .»

صعقت ، قذفت الصحيفة بعنف واتكأت على الشفير* سارحا مع أفكاري : «هذا صحيح . لقد حذفت الحروف الثلاثة الاولى من اسم السفينة C,O,U !»

---

* الشفير : الحافة العليا لجانب المركب .

ماأزعجه من خبر ، وأسوأ مافيه أنني لاأملك حيلة لتغييره ، فما دامت الصحف قد نقلت القصة ، اذن فاسم القبطان «رنجل» منسوخ الآن في عقول القراء كربان للسفينة «ريج» ، أما الاسم النبيل «كريج» فقد مات واندفن !

واذن ، مالا نستطيع علاجه يجب تحمله .

ارتفعت نسمات صباحية خفيفة أعادت الحياة الى الأشرعة ، فهززت «لوم» لاوقظه ، ثم قمنا برفع المرساة . وبينما كنا نمر بالقناة البحرية ، تناهت الى مسامعنا هتافات من سفن مترامية هنا وهناك : «رحلة موفقة ايتها الريج ! حظا سعيدا !»

كنت آسفا جدا على اسم السفينة ، ولكن ليس باليد حيلة ، فقد أصبح اسمها «ريج» لامحالة .

لم يمض وقت طويل حتى أصبحنا في عرض البحر . أحسست بالهمّ ينزاح عن قلبي ، فما أروع أن تكون في وسط البحر بين مياهه وأمواجه . لقد أصابت حضارة الاغريق حين قالت بأن البحر يغسل أحزان القلوب .

كنا نتقدم بكل هدوء والأمواج تضرب جانبي السفينة برفق . كان الصاري يصر صريرا خفيفا ، في حين

راح الشاطئ يبهت ويتلاشى بعيدا ، وشيئا فشيئا بدأت الريح تنشط من حولنا ، وحومت في السماء طيور النوء وهي تطلق صرخات مدوية ، ثم لاحت لنا قمم بيضاء مزبدة فوق الأمواج . لقد بدأت الرياح عملها الآن ، وهاهي تشرع بالصفير . انها قوية مالحة تليق بريح بحرية تماما . حينئذ زال أثر آخر منار على اليابسة وأصبح البحر يحيط بنا من كل الجهات .

تركت الدفة بعد أن سلّمتها الى «لوم» ونزلت لآخذ قسطا من الراحة والنوم . وكما هو شائع بيننا نحن البحارة : «اغمض عينيك اغماضة مادمت تقدر .»

لذا سكبت لنفسي كأسا من الرم* ، ثم استلقيت في فراشي كالميت . لم تمض ساعتان حتى استيقظت وصعدت ثانية الى سطح السفينة وأنا منتعش كزهرة ربيع . جلت ببصري فيما حولي لأول وهلة لم أر التغير الكثير : البحر نفسه من حولي ، النوارس نفسها فوق الرأس ، وهناك «لوم» يقف بجانب الدفة يقظا متنبها ، ولكن ، كان ثمة خط ساحلي لايرى الا بصعوبة .

أتعرف ما الذي جعل الساحل الذي انطلقنا به

* الرم : نوع من شراب مسكر .

أمامنا ، والذي من المفروض أن يكون على بعد ثلاثين ميلا عنّا الآن ؟ انه العار ! انه أكثر شيءٌ مخز يمكن أن يحدث . لقد صعقتني المفاجأة ، وامتلأت نفسي بالسخط والنقمة . وفي الحقيقة ، كنت بصدد الارتداد بالشراع الى الوراء والعودة الى الميناء مطأطأ الرأس قبل أن أدخل في خضم مغامرة حقيقية مع صديق كهذا .

فتحت فمي لأصرخ ، لأوجه أمرا ، أخذت نفسا عميقا ليكون صوتي جهوريا قاسيا يهز الأرجاء حين توقفت ، فها أنذاك أمام تفسير واضح لكل ماحدث ، كان مصدره انف «لوم» . فقد لاحظت بأن أنفه ظل موجها صوب الميناء بمنخريه المنفرجين ، ونفسه المتوترة ، ثم تذكرت بانني تركت سدادة زجاجة الرم مفتوحة في غرفتي التي هي في اتجاه الميناء نفسه . ان لصديقي «لوم» أنفا حساسا للمشروبات الروحية ، لذا كانت نفسه وروحه تتبعان أثرا لزجاجته .

كان من السهل جدا معالجة الموقف . يمكنك أن تقول أن ماقمت به هو حالة خاصة في البحرية العملية لايمكن للعلم ادراكها . فقد نزلت على الفور الى الغرفة وحركت الزجاجة الى الجانب الأيمن ، وعلى الفور اتجه

انف «لوم» ، الذي يشبه ابرة البوصلة في تتبعها لقطعة مغناطيس ، الى الجهة اليمنى أيضا . وبذلك التف اليخت بدوره نحو اليمين . ومن ثم قمتُ بتثبيت القنينة في هذا الوضع ، فلم يعد «لوم» يميل عن الاتجاه وأصبح يقود السفينة نحو الأمام كالسهم .

سألني مرة بعد غفوة عميقة : «ألا نضع قماشا جديدا أيها القبطان ؟»

لم تكن الفكرة سيئة ، فوافقته . كانت «ريج» تسير جيدا وأصبحت أفضل بردائها الجديد الأبيض .

ومضينا مبحرين في المحيطات الزرق .

الفصل الثالث

عن التكنولوجيا والابداع

الابحار في المحيطات الزرق... استمع الى هذه الكلمات فقط أيها الشاب وانصت الى موسيقاها. المحيطات... الفضاءات، ان لها نكهة الفلك بالتأكيد، فأنت فيها تشبه نجمة، كوكبا، أو قمرا صناعيا في أقل تقدير.

وهذا هو السبب في أن أُناسا مثلي أو من هم بمثل اسمي كـ «كرستوفر كولومبس» قد قادتهم الفضاءات

المفتوحة للمحيطات وهي تعدهم بعجائب الاستكشافات الجديدة.

على كل حال، فهذا ليس مانحن بصدده ولاهو بمصدر الاعجاب الرئيس الذي يدعوك لترك شواطئك التي ولدت على ترابها. سأشرح ذلك لك.

مما لاشك فيه أن حب الابحار فوق مياه المحيطات لايماثله في الروعة والعظمة شيء، ولكن الأعظم منه هو حديثك لأصدقائك وأهلك عن الأشياء المبهمة التي صادفتك، ووصفك تقلبات حياة الملاّح.

ولكن، ماالشيء الذي من المحتمل أن يواجهك في البحر الواسع؟ في الغالب، الماء والرياح.

وماهي المخاطرات والمجازفات التي يحتمل أن تقابلك؟ العواصف، انزلاقات الموت، الهدوء، الضباب، ضحالة المياه، وأشياء اخرى غير طبيعية تحدث في عرض البحر كالتي حدثت لنا اثناء رحلتنا. ولكن عموما، لايوجد غير المياه والرياح والضباب وهي ليست بتلك الاشياء التي من الممكن أن تفتن المستمع وتشده.

ولكي أكون دقيقا أكثر، هناك أيضا «التايفون»(*)، وأمواج المد، صيد اللآلىء والسرطانات. كل ذلك مسل جدا ولكن وصف كثيرا من قبل حتى أنك لم تعد تفغر فاك دهشة لسماع مايتعلق بها.

للموانئ قصة مختلفة، فهناك أشياء كثيرة تعجب لروعتها، فكلٌ يمتلك وجها خاصا به.

لذا كان الملاحون من أمثالي محبين للبحث والتنقيب ولاتعيقهم الاهتمامات التجارية، ويحاولون دائما أن يغيروا في رحلاتهم بأن يعرجوا على أكبر عدد ممكن من الموانئ كما تتهيأ لهم فرص لمشاهدة أكبر عدد من البلاد. وفي هذا الصدد، فان يختا صغيرا يوفر لك كثيراً من المصروفات ويهيئ لك رحلة قليلة النفقات.

أقف هناك، وأنحني فوق خارطة تقول لي بأنني أقترب من بلد لم يسبق لي رؤيته أو زيارته. كيف يعيش الناس هناك؟ المرء منا يشعر بأن عليه اختلاس نظرة اليهم في الأقل. ولم لا؟ اذهب واختلس ماتشتهي من النظرات! أُترك الدفة قليلا!

* التايفون : الأعصار الاستوائي.

بعد قليل بدأ ضوء الفنار يلوح في الأُفق. مضيئا،نعدو مع الريح، نطوي الميل بعد الميل. كنت سعيداً بسفينتي لأنها أُثبتت قدرتها على مواجهة أعاصير البحر. في اليوم الخامس، وعندما انقشع الضباب، لاحت لنا شواطئ النرويج.

كان بوسعنا الابحار أبعد، ولكن لم العجلة؟ أصدرت أمري عندئذٍ : «أوقف الدفة!» أدار رفيقي الأُول عجلة القيادة دورة كاملة. وبعد ثلاث ساعات، كانت سلسلة المرساة تستقر في زقاق بحري جميل منعزل.

هل رأيت زقاقاً بحرياً من قبل أيها الشاب؟ لم تر؟ اذن، فقد فاتك الكثير!

الزقاق البحري هو خليج أو مدخل طويل، كثير المنعطفات، محاط من جانبيه بصخور شديدة الانحدار، كثيرة الشقوق، مغطاة بطحالب هائلة الطول. و.... صمت تام. جمالها وروعتها يفوقان الوصف.

قلت : «والآن يا «لوم»، مارأيك بالنزول الى الشاطئ لالقاء نظرة؟».

أجاب بصوته الهادر وهو يفزع سربا من الطيور استقرت على الصخور : «طبعاً، طبعاً ياسيدي!»

فتردد صدى صوته اثنتين وثلاثين مرة... هذا ماأحصيته.

انني لاأدعو ذلك ترحيباً كافياً ليخت جميل كهذا، كما أن المكان كان غادراً نوعاً ما. هذا ماا كتشفناه لسوء حظنا. أما باستثناء ذلك، فان المكان كان خرافي الجمال.

بعد أن تأكدت من إحكام العجلة، نزلت الى غرفتي لتغيير ملابسي، ثم تبعني «لوم» ايضاً. وعندما اوشكت أن أنتهي من استعدادي، أحسست فجأة بالقارب يتأرجح، وبمقدمته تغوص في الماء ثم تعلو وكأنه يتقدم الى الأمام. اندفعت الى سطح المركب مسعوراً، فتمثلت أمام بصري صورة حزينة : كانت الأقواس تغطس في الماء، في حين ارتفعت مؤخرة القارب في الهواء.

أدركت وقتئذٍ بأنني ارتكبت خطأ حقيقياً حين لم آخذ بعين الاعتبار مواصفات القاعدة، هذا اضافة الى جانب جوهري آخر وهو المد الذي نسيت كل مايتعلق به. والآن، هاهي المرساة تسحب مقدمة القارب بقوة نحو الأسفل، في حين راحت مؤخرته تندفع عاليا بفعل الماء الذي مازال في ارتفاع لم يكن بامكاننا ارخاء سلسلة المرساة لأن المقدمة كانت غاطسة عميقا في المياه بحيث

أننا لانستطيع الوصول الى رافعة المرساة الآ اذا غطسنا.

وبجهد كبير ثبتنا باب الغرفة بعوارض خشبية، فاتخذت «ريج» وضعاً شاقولياً : أشبه بفلينة لصنارة صيد. ماذا بوسعك أن تفعل أزاء ذلك؟ لقد قضينا الساعات الخمس التالية في الجلوس على المؤخرة كالدجاج الراقد على بيضة.

في المساء، وبعد أن تعلمنا من الدرس، قدت السفينة الى زقاق بحري ضيق، وأرسيتها على الساحل، معتقداً بأن ذلك سيقينا من المفاجات غير السعيدة.

تناولنا بعد ذلك عشاءاً متأخراً، نظفنا المكان، ثم أطفأنا الأنوار حسب الأنظمة واتجهنا الى الفراش بقلب مرتاح ونفسٍ هادئة. في الصباح، وقبل انبلاج شعاع الفجر، استيقظت على صوت «لوم» يقول :

– «هدوء تام، وجو صحو حسب مقياس الضغط، المحرار في الخارج يشير الى أثني عشرة درجة مئوية، ولكن العمق المسبور يوضح استحالة السير نظراً لغياب الماء».

ارتبك نومي، ولكنني لم استوعب معنى كلماته في الحال، فسألته :

– «ماذا تعني بقولك و«غياب الماء»؟ ماالذي حدث

له؟».

أجاب : «لقد تراجع الماء بفعل الجزر، وانحشر اليخت بين صخرتين. وهو الآن في حالة استقرار تام.».

ارتقيت درجات السلم لأصل السطح، فرأيت الزقاق البحري قد جاءنا بمفاجأة أخرى، وبدلاً من المد القوي الجارف، واجهتنا مشكلة المياه المنخفضة. ثم ظهر أن الذي ظننته زقاقاً بحرياً، لم يكن الا مضيقاً صغيراً ملأته مياه المد. وبحلول الصباح تراجع المد، فوجدنا أنفسنا في مايشبه المرفأ الجاف. وتبينت بعد قليل وجود هوة عميقة تحت السفينة تقارب في عمقها الأربعين قدماً، لذا فمن الأفضل لنا أن نجلس وننتظر المد الآخر.

ولكني لست ممن يحبون اضاعة الوقت والفرصة. لذا قمت برمي سلم الحبال على جدار المركب. نزلت عليه وبيدي فأس وفرشاة وبعض الأصباغ. ثم قضيت الوقت بمسح جوانب القارب المغمورة تحت المياه أثناء الابحار، وغطيته بطبقة جديدة من الطلاء. وعندما بدأ الماء بالارتفاع، رمى «لوم» شبكته واصطاد لنا بعض السمك للغداء. أترى؟ كل منا قادر على تسخير أسوأ مايواجهه من الظروف لمصلحته اذا استعان بعقله وتفكيره.

المنطق يقول أن علينا ترك هذا الزقاق الغادر من غير تأخير، فأنت لاتستطيع تخمين المقالب المشمرة عن ساعديها في وجهك، ومن ناحية اخرى، فانني أعد نفسي رجلاً شجاعاً، مثابراً، وربما عنيداً أيضاً ولاأحب أن تلوى يدي .

وبما أنني أزمعت السير على الساحل، فانني سأرحل لكل الشواطئ. وحالما عادت «ريج» الى العوم، أخذتها الى موقع جديد أمين جداً من المد، فأنزلت مرساتي وأرخيت سلسلتها، ومن ثم سرنا متمهلين على الشاطئ.

شققنا طريقنا بين الصخور، وكلما تقدمنا في المسير، اغتنت الحياة بوحشيتها وبراريتها. فقد انتشرت السناجب على الأشجار، وانطلقت الطيور تغني بحيوية الحر. كان هناك سلام بدائي، هذا ماشعرنا به. أما تحت أقدامنا، فقد تناثرت كل أنواع ثمار العليق. لم أر في حياتي قط فراولة بهذا الحجم الذي يماثل ثمرة البندق! تغلغلنا في الغابة ونحن نلتهم الفراولة متناسين في غمرة سعادتنا هذه كل مايتعلق بالغداء، ولم نفطن لأنفسنا حتى بدأت الشمس تمد خيوط الوداع والبرد يزحف الى أوصالنا. أدركنا أن الغابة تحيط بنا من كل الجوانب، ومازالت

الفراولة منتشرة بلا حدود. اخترت اتجاهاً تنحدر الأرض فيه على أمل الوصول الى الزقاق، والى السفينة. وفعلا وصلنا الى زقاق بحري، ولكنه ليس الذي نريد ونبغي، لذا أُجبرنا على اشعال النار وقضاء الليل بجانبها.

في الصباح الباكر، تسلقنا تلا قريبا وكلنا رجاء لرؤية «ريج» من علٍ. إن تسلق تلٍ ليس بالمسألة السهلة لرجل في مثل بنيتي، ولكنني مع هذا صعدت مع «لوم» كنت ألهث وأستمد قوة اضافية من الفراولة. وفجأة تناهى الى أسماعنا صوت قادم من الخلف وكأنه ريح تصفر بين الأشجار، أو صوت شلال بعيد حتى التقطت أُنوفنا رائحة دخان.

أجلت الطرف فيما حولي، فرأيت الغابة تحترق. أللهب يرتفع جداراً خلفنا، وكل مافي الغابة من أحياء تبتعد هاربة. هاهي السناجب ترتقي التل، والطيور تصرخ فوق رأسينا. لقد كان ذعراً حقيقياً.

لست ممن يهزمهم الخطر، ولكن في هذه الحالة فان النجاة تكمن في الهروب. لذا أسلمت قدمي للريح، وانطلقت جارياً خلف السناجب الى قمة الصخرة، فليس هناك من طريق آخر نهرب اليه.

واذن... وصلنا القمة لاهثين، فوقفنا نسترد أنفاسنا ونتبين ماحولنا. المشهد كان مروعا، اننا محاطان بالنيران من جهات ثلاث، أمّا الرابعة فتحتل حافة شديدة الانحدار، نظرت من عاليها، فتسارعت دقات قلبي. ياالهي، سأتحطم وأصبح فتاتا إن حاولت القفز من هنا. كانت البقعة المفرحة الوحيدة في هذه الصورة السوداء هي «ريج» بتمايلها الرشيق فوق صفحة الماء. انها هناك أمام ناظرينا، تشير الينا بشراعها وكأنها انسان يشير باصبعه.

مضت مدة ليست قصيرة، ثم بدأت النيران بالخمود، ولكن بعد أن تجمهرت من حولنا حشود السناجب. كان البعض منها منكس الذيل، لم تدن منه أنياب الخوف. أمّا البعض الآخر فقد كان يتسلق ظهرينا وكأنه يريد أن يصعد قمة القمة. هذا مانجنيه من إشعال نيران المخيم في الغابة!

كان «لوم» يائساً جداً وكذلك السناجب. ولأكن صريحاً، أعترف بأنني استهلكت كل ذرة في ذكائي، ولكنني في الوقت نفسه لم أيأس أو أُسلم، فالقبطان يجب أن يكون مثالاً للشجاعة مهما حدث.

وفجأة رأيت سنجاباً يعبر ببصره نحو السفينة، ثم ينزل المنحدر قافزاً وذيله يتماوج في الهواء. وليست أكثر من لحظات استقر بعدها السنجاب سالماً على ظهر السفينة. وفي الحال تبعه آخر، ثم ثالث، ثم تبع بوابل من السناجب. وفي غضون خمس دقائق فرغت الصخرة منها تماما.

حسناً، لماذا لانفعل المثل؟ لذا عزمت على القفز أيضاً، وأسوأ ماسيحدث لنا هو الغطس في الماء البارد، ولم لا؟ سباحة قبل الافطار مفيدة لفتح الشهية.

لذا أمرت : «ياصديقي». اتبع السناجب : اندفع بقوة الى الأُمام!»..

تقدم «لوم» خطوة. رفع قدما... وفجأة التف بجسمه كقطة وعاد الى الخلف مبتعداً ثم قال :

- «لاأستطيع أيها القبطان. افعل بي مايحلو لك، ولكنني لن أقفز، وأُفضل البقاء هنا مطبوخاً.».

أدركت من طريقة كلامه بأنه يفضل فعلاً أن تشويه النيران على القفز من هذا الارتفاع انه نوع من المرض عند بعض الناس، انه الخوف من المرتفعات. ولاريب انني لن أترك «لوم» المسكين ليأكله اللهب.

فتشت في ثنايا رأسي، فعثرت على طريقة مضمونة في الخلاص. انني أحمل تلسكوبا معي، تلسكوباً بحرياً ممتازاً ذا اثنتي عشرة قدرة تكبيرية.

أمرت «لوم» أن يقربه من عينيه، ثم أخذت بيده الى حافة الصخرة وأجبرته بكل صرامة: «كم سنجاباً ترى على ظهر السفينة ياصديقي؟».

بدأ «لوم» يحصي: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة......».

قاطعته بنبرة حازمة: «لاتهتم لعددها، استلم الحمولة من دون حساب وادفع بها الى القفص!».

وعلى الفور عادت اليه طبيعته في اطاعة الأوامر، وخاصة بعد أن كان التلسكوب يقرب المسافة الى السفينة. وأخيراً قفز «لوم».

نظرت الى الأسفل خلفه، فرأيت نافورات المياه التي أحدثتها قفزته. دقائق ليس الاّ وخرج «لوم» الى سطح الماء، ثم تسلق جدار اليخت ونفذ المهمة التي أصدرتها له. وبما أنني رجل يهابه الخوف، فلست محتاجا لتلسكوب كي اقفز.

يجب أن تتعلم هذا الدرس أيها الشاب. فان أتيحت

لك فرصة القفز من مرتفع، ولنقل بالبراشوت، فخذ تلسكوباً معك. ومهما كان نوع التلسكوب بسيطاً، فأنك ستجد القفز أكثر سهولة حين تقرب الأرض لناظريك.

قفزت، سبحت حتى جدار اليخت، فتسلقته، وقبل أن أجد فرصة أسترد فيها أنفاسي كان «لوم» يصفق باب المخزن ويقول:

– «حمولة كبيرة من السناجب في القفص! هل من أوامر أخرى!».

صحيح، ماهي أوامري؟ كنت محتاراً.

ولكن الشئ الوحيد الذي أفكر فيه الآن هو تهيئة الأشرعة للاقلاع، ورفع المرساه، ثم الابتعاد عن هذا المكان قدر الامكان، فقد رأيت كثيراً من هذه الأزقة البحرية، كما لم يبق فيه مايستحق الرؤية، اضافة الى الجو الذي أصبح حاراً جداً. كان ذلك كافياً للرحيل، ولكن ماذا بشأن السناجب؟ كانت فكرة صائبة أن نضعها خلف الأقفال، الاّ أن الجوع بدأ يتسلل الى بطون هذه المخلوقات اللعينة، ورأيتها تحاول قضم الحبال، ولو أجبرنا على تركها لرغباتها، فسنلزم بتجديد حبال أشرعتنا وصوارينا الجديدة.

طبعاً، كان بمقدورنا سلخها وبيع جلودها في أقرب ميناء، ومن الواضح أن فراءها ممتاز جداً وفاخر في نوعيته. ستكون بين أيدينا ثروة طائلة لامحالة، ولكن هذا لايبدو عدلاً. فالسناجب هي التي أنقذتنا من موت محتم، أو في الأقل دلتنا على طريق النجاة. كان أمامنا التزام وتعهد نحوها ومجازاتها بالسلخ أسوأ مايمكن أن نواجه به معروفها. لست بالخسيس الذي يقابل المعروف بالاساءة، ولكن من ناحية أُخرى، فان الابحار بهذا الجمع الكبير حول العالم يبدو مرهقا، لأننا سنكون مجبرين على إطعامها والعناية بها، فهذا هو قانون البحر : ان أخذت مسافراً معك، فيجب أن توفر له أفضل سبل الراحة.

لذا قررت ارسالها الى البيت، وأين هو بيت الملاّح؟ في البحر طبعا. لقد اعتاد الأُدميرال «ماكاروف» أن يقول : «في البحر يعني في البيت.» وهذا هو شعاري أيضا. قررت أن نبحر، ومن ثم نفكر فيما سنفعله بشأنها. وربما ألجأ الى الميناء القادم طلباً للمشورة.

وأخيراً، انطلقنا فوق صفحة الماء، التقينا بزوارق صيد، قوارب بخارية... كل شيءٌ طبيعي هادئ. ولكن

بحلول المساء. وصلت الرياح حدا من القوة ارتفعت فيه الأمواج لمستوى مروع. كانت «ريج» تعتلي قمة الموجة وتهبط مرتطمة في منخفض بين الأمواج الأخرى. بدأت الأجهزة تصر والصاري يهتز محدثا صوتا عاليا. وحتى السناجب في قفصها أُصيبت بدوار البحر. ولكنني كنت سعيدا، فسفينتي تقف بوجه الطبيعة بكل صلابة وتتباهى بقوتها في أسوأ الأحوال الجوية. «لوم» هو الآخر أبلى بلاء حسناً في هذا الموقف، فقد ارتدى سترة طويلة مشمعة ووقف خلف عجلة القيادة وكأنه ملتصق بسطح المركب، يوجه العجلة بيدين صارمتين ثابتتين واثقتين من كل ماتقومان به. راقبته بضع هنيهات وأنا معجب بصفاته الاستثنائية، ثم تركته ونزلت. جلست خلف مكتبي. فتحت جهاز اللاسلكي، ثم وضعت اللاقط على اذني لأسمع من يحاول الاتصال أو ارسال شيئ.

اختراع رائع هذا اللاسلكي. تضغط زرا، تدير قرصا وسيكون بوسعك سماع مايحلو لك ويشتهيه قلبك : موسيقى، أخبار، تقلبات الجو، مباراة بكرة القدم. ولكن في ذلك الوضع، لم أستسغ الاستماع الى أي شيئ ممتع، ومما زاد الطين بلّة أن سنيّ بدأت تؤلمني بشدة.

كانت هناك فجوة في أحد أسناني ولم تسنح لي فرصة لحشوة. وبعد أن سبحت في الماء البارد، ازداد التهابه.

فكرت في نفسي : «من الأفضل أن أستلقي وأرتاح.» كنت أوشك أن أرفع اللاقط عندما التقطت أُذناي صوت استغاثة. أُنصت :

«.،.، –، –، .، .، .،» حتماً هناك قارب في الجوار يواجه خطرا. حبست أنفاسي في محاولة التقاط التفاصيل، ولسوء الحظ اقتربت في تلك اللحظة موجة رفعت القارب عاليا، فصدر عن السناجب نواح صاخب بائس.

كانت حركة اليخت المفاجئة قد أفلتت الجهاز. من يدي، فارتطم بجدار الغرفة وتحطم. كان تحطمه شديدا ولاأمل في اعادة تركيبه لوضعه الأول، وبهذا فقدت الاشارة التي استلمتها. شعرت بقلبي يؤلمني لمجرد التفكير بوجود أحياء في محنة وعلى مقربة مني، ولكنني لاأستطيع تقديم يد العون اليهم. الى أين أُوجه سفينتي؟ وحتى سني ازداد ألما عن ذي قبل. هل تتصور مدى سوء حالتي وصعوبة موقفي؟ ولكن ألم السن كان له فضل في تقديم الحل فيما أنه يتأثر بالومض، لذا أمسكت بطرف «الهوائي»

وأدخلته في فجوة السن. كان الألم قاتلاً، مميتا، وحتى النجوم رأيتها ترقص أمام عينيّ، ولكنني تمكنت من استلام اشارات «مورس» بكل وضوح. كانت النقطة (٠) كوخزٍ أليم حاد، أما الفاصلة (–) فكانت كبرغي يحفر داخل السن. لم تكن بي حاجة لتكبير الاشارة أو تعديلها، فقد كان لألم السن حساسية عالية جدا. وبكل تأكيد كان الألم يرسم الموت أمامي، ولكن على المرء أن يكون مستعداً للتضحية بنفسه من أجل الآخرين.

صدق أو لاتصدق، لقد نجحت في استلام رسالتهم كاملة بوساطة سني التالفة، فأخذتها وترجمتها أيضاً. كانت قريبة جدا الينا. انه مركب شراعي نرويجي أخذ طريقه الى الأعماق بعد أن شرخت قاعدته شرخاً كبيراً. وكانت العاصفة تضربه بلا رحمة وسيغرق في غضون لحظات لا محالة.

أنستني تلك الاشارة ألم سني، وجعلتني أُسرع الى ظهر السفينة وأُقف خلف الدفة بنفسي.

كانت ليلة ليلاء، الريح فيها تعوي والأمواج الباردة ترتطم بسفينتنا الصغيرة. وفي غضون نصف ساعة عثرنا على المركب وسعينا لاضاءة الموقع بالصواريخ النارية.

ولكن كيف السبيل لاخراج من عليه؟ لم يكن بوسعنا الاقتراب بمحاذاته، فقد أنزلت قوارب النجاة، ولو حاولنا سحبها فان نصف الجمع سينتهي الى الغرق. حاولت الاقتراب من المركب الشراعي من احدى جهاته، ثم من الجهة الأُخرى، ولكنني لم أفلح في عمل شيئ والعاصفة في هياج متواصل. التفت الأمواج وألقت بنفسها فوق ظهر المركب الشراعي. انتظر لحظة، لقد قدحت في رأسي فكرة، نعم هذا ممكن.

قررت أن أُخاطر. فشققت طريقي بالسفينة في وجه الريح. ثم استدرت ورجعت بشراع مفتوح تماما مع موجة كبيرة عالية.

كانت فكرتي بسيطة وهي أن «ريج» لاتمتلك قدرة كافية للسحب، ومن جهة أُخرى فان الأمواج عالية كالجبال، فلو نجحنا في البقاء على قمة موجة، فسننزلق فوق ظهر المركب الشراعي مباشرة.

بدأ اليأس يشق طريقه نحو قلوب النرويجيين، وفجأة وصلنا نحن. أنا أقف خلف الدفة، وصديقي «لوم» ينحني على جدار اليخت ويلتقط كل اثنين في وقت واحد. وفي ثماني مرات، أنقذنا ستة عشر رجلا كاملين مع قبطانهم.

ظل القبطان حزينا متألماً قليلاً، فقد كان قانون البحر يقضي بأن يكون القبطان آخر من يترك القارب، ولكن «لوم» لعجلته وتحت دياجي الظلام، سحبه قبل فريقه جميعا. كان خرقا لقانون البحر، ولكن ماذا نقول؟ لم يمض وقت طويل بعد انقاذنا لآخر اثنين حتى جاءت موجة عالية جدا لحقها تحطم عظيم انتهى بتناثر القارب السيء الحظ قطعا قطعا بين الأمواج.

خلع النرويجيون قبعاتهم ووقفوا على ظهر السفينة يحدقون ببقايا مركبهم المتحطم وهم يرتجفون. قضينا معهم مدة على هذه الحال، ثم عدنا أدراجنا بأقصى سرعة الى «النرويج».

ضاقت سفينتنا الصغيرة بهذا الحشد الجديد، الاّ أن الضيوف لم يشكوا ذلك. وما من عجب، فمهما كانت راحتهم قليلة هنا، فهي أفضل كثيراً من إطعام لحومهم للأسماك.

أصبحنا الآن بصحبة عدد كبير من الضحايا المنقذين، وكل ذلك بسبب اتساع حيلتي وبعد تفكيري. ولو أردت أن تصبح قبطانا عظيما أيها الشاب، فلا تدع فرصتك لتفلت من يدك أبدا، ضع كل شي في موضعه

الصحيح، وفكر جيدا قبل الاقدام على أية خطوة حتى
وان كانت ألمك الذاتي.

الفصل الرابع
عن سكان اسكندنافية، ومدينة هامبورغ، واستعمال السناجب لاغراض الدفع والتسيير

بهذا عدنا أدراجنا الى النرويج، الى مدينة «ستافانجر». لقد برهن البحارة من سكان تلك المدينة على عظمتهم في ترحيبهم بنا وتقديمهم كل مانحتاجه قام بعضهم باستقبالنا في أفخر فنادق المدينة، وأخذوا على عاتقهم مهمة طلاء السفينة بأفخر أنواع الأصباغ حتى أنهم لم ينسوا السناجب: اذ هيأوا لها أوراقا رسمية كونها

جزءا من الحمولة ومن ثم سألوا عن طعامها المفضل.

وكيف لي أن أعرف؟ فلم يسبق لي أن ربيت سنجابا في حياتي. سألت «لوم»، فأجاب:

- «أعتقد أنها تأكل البندق والكوز (الصنوبر).»

أرسلت «لوم» مع أحد النرويجيين الى أقرب محل للبقالة وقلت له:

- « حاول أن تجد ماينا سبها.»

عندما عاد قال بأنه أتم المهمة بوجهها الصحيح، فقد عثر على البندق والكوز. أخذتني الدهشة قليلا لأنهم يبيعون الكوز في محل عادي. ولكنك تجد كل أنواع الأشياء الغريبة في هذا البلد الأجنبي. من المحتمل أنهم يشترونها لتسخين السماور، أو لتزيين شجرة عيد الميلاد، هذا ماخطر ببالي.

عند حلول المساء، جئت لأتفحص طلاء اليخت، ولأرى سير الأمور مع السناجب في سجنها فماذا رأيت باعتقادك؟ لقد ارتكب «لوم» خطأً، وياله من خطأ، جميل.

بدت السناجب مسرورة جدا وهي تغرف البندق من العلب. ولكن بدلا من الكوز وصلت أقفاص من

الأناناس. حقا ان الأناناس يبدو في شكله كالكوز الآ أن حجمه أكبر بقليل. كما أن رائحته لذيذة جداً. لقد رآها «لوم» في المحل فأشار اليها وكان ماكان.

لم يتركونا، وانما صحبونا الى المسارح والمتاحف ورافقونا لمشاهدة كل المواقع المحلية.

ومن بين الأشياء الأخرى أنهم دعونا لرؤية حصان حي. ألحصان نادر الوجود في النرويج لأن السكان هناك يتنقلون بالسيارات أو سيرا على الأقدام. أمّا الحراثة، فتتم بوساطة الساحبة وهي الأخرى ليست محتاجة الى حصان: لذا يقوم النرويجيون ببيع صغار الخليل، أما كبارها فتعيش في حدائق الحيوان تمضغ التبن وتحلم بسباقات الأيام الخوالي.

وان أخرج حصان للنزهة تتجمع حوله جماهير من المارة يتصايحون ويتداخلون مع زحام السيارات هذا المشهد في النرويج يبدو مثل سير زرافة في شوراع موسكو.

بالنسبة لنا نحن السوفيتيين فان حصانا ليس بالشيئ الجديد ولكنني قررت أن أعامل النرويجيين على أنهم قاموا بعمل مثير أمامنا، لذا أخذت بزمام الحصان وصعدت

على ظهره ثم لكزته بقدمي.

شُدِهَ النرويجيون لما فعلته، وفي اليوم التالي حملت الصحف جميعا صورتي معتليا ذلك الحصان. يظهر الحصان في اللقطة طائرا وذيله يرفرف خلفه. أما أنا فأُجلس فوق ظهره بلاسرج وردائي غير مزرر، بقبعتي المنحرفة فوق رأسي وقدميّ المتدليتين.

بعدئذ أدركت أنها ليست بالصورة العظيمة كما أنها لاتناسب بحارا ولكنني في حرارة تلك اللحظة، كنت سعيدا جداً بها وكذلك النرويجيون.

يجب أن أقول هنا أن النرويج بلد جميلٌ بكل مساوئه وسكانه صدوقون جداً وسهلو المعشر.

لقد زرت النرويج قبل هذه المرة، وأتذكر الآن حديثا دار بيني وبين مسؤول المحطة. فقد كنت مجبراً على الانتظار الطويل حتى يصل القطار. أردت وقتها أن أتخلص من أمتعتي بعض الوقت فأنت لاتستطيع التجول وأنت تحمل معك حقيبتين ثقيلتين. لذا بحثت عن الغرفة المخصصة للأمانات، ولكنني لم أفلح في العثور عليها، فذهبت الى مسؤول المحطة وطلبت منه ارشادي الى مكان أضع فيه حقيبتي.

قال: اعذرني. لانقبل هنا أية حالات خاصة. ولكن لاتدعها تقلقك، واتركها أينما يحلو لك، فلن يمسها أحد.»

هكذا كانت الحال، ولكن الآن تختلف تماما. فقد جاء صديق لي من النرويج مؤخراً. هل ستصدق ماأقول؟ لقد سرقت حقيبته من المقصورة التي يستقلها، العادات والعرفُ في تغير دائم مستمر. أنت تعلم أن الألمان احتلوا النرويج أثناء الحرب وقد رسخوا أنظمتهم الجديدة فيها. كما أن عددا من رجال التنوير الثقافي والروحي دخلوا النرويج لرفع طريقة العيش الى مستواهم، وبهذا أصبح السكان أكثر تمدنا وبراعة فنية. انهم الآن يدركون بأن على المرء أن لايترك فرصة في الحياة تفوته.

ولكن أثناء زيارتي باليخت، كانوا محتفظين ببعض عاداتهم القديمة. في الحقيقة ليس الكل ، فهناك بعض من الناس اتبّعوا أُسلوبا جديدا في العيش. أولئك الذين تذوقوا من شجرة المعرفة، ولم يتمسكوا بأُصولهم. أعني أولئك أصحاب المحلات الكبيرة والمصانع وغيرها من المؤسسات لقد ترك هؤلاء أعينهم مفتوحة لكل جديد.

علمت احدى الشركات التي تقوم بتصنيع اجهزة

الهاتف والراديو وغيرها بحكاية سني. تصور لو استعمل الناس أسنانهم في استقبال موجات الراديو، فلن يحتاج أحدٌ لأجهزة لاسلكي، وستصيب الشركة خسارات عظيمة. لذا قرر أصحاب الشركة شراء اختراعي وكذلك سني التالفة.

بدأوا معي مفاوضاتهم بحسن نيه فبعثوا لي برسالة تتضمن طلب شراء سني. ولكنني كنت قد قررت لها مصيرا آخر لقد أصبح الألم الآن محتملا على أية حال، وأستطيع بوساطته مضغ الطعام. أما تلك الفجوة. فأمرها لايخص أحداً غيري. قال لي صديق يعشقُ ألم الأسنان مرة: «من المؤكد أن ألمها قاتل في بعض الأحيان، ولكن ماأجمل شعورك بعد أن يغادرك الألم.»

لذا أجبت الشركة بأن السن ليس للبيع.

أتظنها اكتفت بذلك الرد؟ كلا، أبدا! لقد قرروا سرقة السن. كان يتبعني بعض الشخصيات المريبة الذين مابرحوا يمعنون النظر في فمي وهم منهمكون بمشاورات هامسة.

بدأت أشعر بعدم الراحة. ان الأمر لن يكون سيئا جدا ان أخذوا السن فقط ولكن ماذا لو أخذوا الرأس

بأكمله كي يكونوا على يقين من امتلاكهم السن المطلوب؟

بعد أن وصلت الى هذا الحد في التفكير. قررت أن أُسلم ساقي للريح فانطلقت راكضا ثم أرسلت رسالة راديوية الى ميناء المغادرة ليراقبوا السناجب ويأخذوا التدابير الوقائية ضد أُولئك الذين يتربصون لسني.

عندما وصلت قمت بتثبيت احدى نهايتي لوح بلوطي تحت بوابة مستودع مغلق، أما نهاية اللوح الأُخرى فأدخلتها تحت باب مطبخ السفينة، ثم أمرت «لوم» أن يأخذ حملا من الحصى الى داخل اليخت.

أصبح اللوح الآن كقنطرة توصل الى داخل اليخت بعد الوثوب عليه، ولكنه غير مثبت جيدا تحت الباب. وقبل أن أذهب الى الفراش تفحصت المصيدة، فوجدتها في أحسن حال. اطمأن بالي وذهبت الى الفراش بقلب بارد حتى أنني لم أُوجه «لوم» لمراقبة الوضع. فقد كنت متيقناً أن ذلك غير ضروري. وماتوقعته حدث فعلا فقد جاءوا بحلول المساء. سمعت خطوات مسترقة، ثم صوت صرير الباب، وبعدها ضجة مدوية صادرة عن انفلات اللوح.

خرجت على الفور لألقي نظرة. حقا لقد نجح (الراجم)* نجاحا عظيما. كانت هناك محطة اذاعية على الساحل، وقد رُجِمَ الأوغاد حتى ارتدوا بعنف الى قمة برجها وتعلقوا من قمصانهم وهم يصرخون ويصيحون ويلوحون بأيديهم.

لم تسنح لي فرصة مشاهدة عملية انقاذ، فقد تسلمت جوابا من مرفئي طلبوا مني فيه تسليم السناجب الى حديقة حيوانات مشهورة في «هامبورغ» يملكها «هابنبك» صاحب أكبر حديقة للحيوان.

لقد أخبرتك من قبل عن فوائد الرحلة الحرة، فأنت فيها السيد تنشر شراعك الى أي مكان تأخذك مخيلتك اليه، ولكن ان أصبحت معاقا بحمولة بضائع أو أشخاص، فلن تكون أفضل من سائق سيارة للأجرة، وتصبح مساقا الى حيث يطلب منك.

مدينة «هامبورغ» مثلا، هل كنت سأذهب اليها من رغبتي أنا؟ مالذي يجذبني الى ذلك المكان؟ رجال شرطتهم المزعجون؟ لاحدود للرسميات المتداخلة في حياتهم، قوائم الشحن المراسلة التجارية والرسوم

* الراجم: المنجنيق.

الكمركية وما الى ذلك خاصة ان وجدت نفسك في قلب «هامبورغ».

ألناس في هامبورغ على عكس النرويجيين فهم يسلبونك ماعندك قبل أن تعرف أين أنت.

ولكن الأوامر هي الأوامر، لذا أحضرت «ريج» الى هامبورغ. أرسيتها، ارتديت ملابسي وخرجت للبحث عن «هابنبك». حين وصلت الى حديقة الحيوانات، وقع بصري على أنواع مختلفة من الحيوانات، أفيال، نمور تماسيح، لقالق. كما رأيتُ سنجابا في قفص كان يبدو كسولا وهو يجلس في مخدعه يمضغ الأناناس والحلوى. كانت هناك عجلة مربوطة في قفصه ورأيته يركض في داخلها بين حين وحين من دون توقف. كان مشهدا جميلا حقا.

وأخيرا عثرت على «هابنبك» وشرحت له قصة امتلاكي لحمولة من السناجب على قيد الحياة، وبأنني أنوي بيعها بسعر معقول.

نظر «هابنبك الى السقف، ثم شابك يديه على كرشه وراح يحرك أصابعه حركة سريعة. وأخيرا قال:

– « سناجب؟ تعني مخلوقات لها ذيول وآذان. نعم أعرف.

اذن فأنت تمتلك حمولة من السناجب؟ حسنا، سأشتريها ولكننا هنا نسير خلف القوانين الثابتة خوفا من التهريب هل بحوزتك شهادة مرخصة؟

في تلك اللحظة تذكرت أصدقائي النرويجيين شاكرا لهم الفضل في حصولي على شهادة مرخصة لهذه السناجب.

أمسك «هابنبك» بعويناته و بدأ يمسح عنها الغبار، وفجأة ومن حيث لاأدري ظهرت أمامنا حرباء قفزت على منضدته وأخرجت لسانها الطويل بسرعة وعنف، ثم اقتنصت الورقة من بين يديه بلمح البصر اختفت بعد ابتلاعها للورقة أسرعت محاولا اللحاق بها ولكن من دون فائدة أعاد «هابنبك» نظارته الى حافظتها ثم هز كتفيه وقال:

– « لاأستطيع شراء سناجيبك من دون ورقة تشهد بمكانها الأصلي القانوني، فقوانيننا صارمة جدا.»

قلت له بأن حرباءه هي السبب لست الملوم. ولكن مامن شيئ زحزحة عن صلابة رأيه. لذا تركته وانصرفت وعندما وصلت المرفأ رأيت شيئا مشؤوماً يحدث على ظهر اليخت فقد لاحظت وجود شرطي على ظهر السفينة

برفقة بعض موظفي جمارك الميناء وهناك على الساحل جمع من المتفرجين. بدا وكان «هابنبك» قد اتصل بهم. وكان هناك قانون ينطبق على استيراد مخلوقات غير مرخصة، فخرجوا لمصادرة اليخت مع حمولته.

وبحضوري وقعت في مصيدتهم. حقا انني الآن لاأمتلك أوراقا رسمية لما أُحمله من سناجب، كما أن قصة الحرباء لن تقطع الثلج هنا أو في أي مكان آخر فماذا علي أن أقول؟

بدت الأشياء معتمة أمامي. ولكن في تلك اللحظة لمحت فكرة ببالي فقلت لنفسي:

– «حسن جدا. ان مضيتم في القاء قوانينكم على هامتي فباستطاعتي أن أرد لكم الصاع صاعين وبطريقتكم نفسها.»

وقفت منتصبا مرفوع الرأس وصرحت للمخولين بحجزي:

...طلباتكم ياسادتي باطلة وغير قانونية لأن قوانين البحر وأنظمته العالمية تقول بأن أجهزة الابحار الأُساسية كالمرساة وقوارب النجاة والأُمتعة وأدوات الانقاذ وصواريخ الاشارات الضوئية والوقود ومكائن الدفع

الضرورية للابحار الأمين لاتكون عرضة لضرائب المرفأ كما أنها لاتحتاج لوثائق خاصة.

أجاب أحدهم: «صحيح جدا، ولكن هل بامكانك اخبارنا ياسيدي القبطان لأي مما ذكرت تنتمي حيواناتك؟»

مهما قلت فانني لن أفقد شيئا لذا أجبته: «الأخير، مكائن الدفع.»

إرتد الموظفون الى الخلف لدى سماعهم الرد وبدأوا يتشاورون فيما بينهم همساً، ثم تقدم أحدهم وقال:

— « بوسعنا التنازل عن القانونية أيها القبطان ان برهنت لنا بأن حيواناتك تستخدم حقا لأغراض الدفع.»

وطبعا لا أملك طريقة أُبرهن بها على صحة قولي وكانت فرصتي الوحيدة هي كسب الوقت.

قلت: «ان الأجزاء الرئيسة للماكنة يتم تصليحها الآن على أراضيكم، لذا سأُبرهن لكم ماأردتموه غدا ان كنتم مصرين».

بعد الذي قلته لهم غادروني ولكن ليس قبل أن يتركوا لنشاً بحريا خاصا بهم يَئن ماكنته بجانب اليخت. وبخشية تسللنا مبتعدين في حين كان رجال الشرطة في

انتظار البرهان في غضون ذلك كنت منشغلا في غرفتي أُصمم ماكنة للسناجب كالتي رأيتها في حديقة حيوانات «هابنبك.».

بعد حوالي ساعة خرجت مع «لوم» الى المدينة اتجهنا الى الحدّاد وطلبنا منه صنع ثلاث عجلات. اثنتان منها بدوّاسات شبيهة بتلك الموجودة في قارب نهري والثالثة كطاحونة الماء مع وجود ألواح خشبية بداخلها وشبكة سلكية على الجانبين كان الحداد صدوقا ومساعدا فأُنجز لنا العمل في الوقت المحدد.

في الصباح التالي نقلنا ماكنتنا الجديدة الى ظهر اليخت، ثم قمنا بتثبيت العجلتين مع دوّاستيهما على جانبي اليخت والعجلة التي تشبه طاحونة الماء في الوسط. وأُخيرا ربطنا الثلاث بعمود واحد ثم تركنا السناجب تدخلها وتستقر داخل الشبكة السلكية.

جُنت الحيوانات حين خرجت فبعد الحجز الطويل في القفص انتقلت الى الهواء الطلق وأُشعة الشمس الدافئة فتسابقوا كالمجانين على العتبات الداخلية للعجلة دارت البدعة الجديدة بعنف شديد، وعلى الفور تحركت السفينة بسرعة عجيبة وبلا أشِرعة حتى أن الشرطة لم تستطع

اللحاق بنا الآن بعد مشقة.

كانت العيون تحدق بنا من خلال المناظير والتلسكوبات وعلى البعد جمهرة من الناس يهتفون على الساحل، في حين مضت «ريج» تشق الأمواج كالدولفين. بعدئذ تركناها لتلتف على نفسها وتعود بنا الى المرفأ. الموظف السابق نفسه قدم بسيارته وهو حانق جدا لقد أدرك تماما بأنه قد خُدع، ولكنه مع ذلك لايملك وسيلة لادانتنا.

عندما بدأ الظلام يرخي سدوله، حضر «هابنبك» بشخصه صعد الى ظهر السفينة وأجال بصره هنا وهناك، ثم شابك كفيه فوق كرشه وبدأ يلف أصابعه بحركة دورية سريعة ظل مدة على هذه الحال ثم قال:

— «اذن فهذه هي السناجب أيها القبطان؟ نعم، انني أذكّر كم تريد ثمناً لها؟»

أجبته على الفور: «المسألة ليست مسألة سعر فالحيوانات غير مرخصة وهذا ماتعرفه أنت».

قال: «آه، لاعليك من الرخصة فهي مسألة سهلة قل كم تطلب من المال في مقابلها؟»

نطقت شفتاي بسعر خيالي حقا جفل «هابنبك»

لسماعه ولكنه لم يحاول المساومة فسحب صكا وثبت فيه الرقم الذي طلبته. بعدئذ قام بجمع السناجب من العجلة وفيما هو يوشك أن يذهب قال:

-« ماذا تأكل السناجب؟»

أجبته وأنا سعيد لرؤية تأثير قولي عليه «الأناناس والحلوى المعجونة بالفستق.»

انني لم أكن ميالا لشخصية «هابنبك» وكذلك «هامبورغ» ومن فيها.

الفصل الخامس

عن السردين والايادي الرشيقة

لم يكن في نيتي التوقف في «هولندا»، فليس في هذا البلد شيء ملفت للنظر عدا الجبنة الهولندية والسردين.

ولأنني ملاّح، تجدني مولعا بالسردين. انهم يصطادونه ويملحونه، ثم يحفظونه في الخل، وقد يبيعونه حياً طرياً لأصحاب الأحواض المائية الصناعية.

ربما يعرف الهولنديون سراً ما في ذلك، والأفكيف تفسر عدم قدرة أي انسان غريب الجنسية على صد

السردين هناك؟ لقد حاول الأُسكتلنديون ونجحوا في جذب شباك مليئة بالسردين، ولكنك لو نظرت الى كل منها لوجدتها سردينة اسكتلندية.

النرويجيون حاولوا أيضا، وهم صيادون من الدرجة الأُولى، وحالفهم الحظ في اقتناص كثير من السردين، ولكن كل ما حصلوا عليه كان نرويجي الأصل. بهذه الظاهرة، أصبح الهولنديون محتكرين لانتاجهم، يبيعونه هنا وهناك: الى جنوب أفريقيا وشمال أمريكا كذلك. ليس عليك الآ تحديد المكان فقط، وعلى الفور سيأخذون على عاتقهم مهمة تصدير السردين اليه.

وبما أنني كنت أعرف طريقة تعليب السردين، فقد اكتشفت شيئًا مهماً جداً سبب تغيرا في خطتي الأولية. فبعد مراقبتي الطويلة، تأكدت بما لا مجال للشك فيه من أن كل سردينة عبارة عن سمكة، ولكن ليس كل سمكة هي سردينة.

ماذا يعني ذلك؟

يعني عدم الحاجة لصرف مبالغ طائلة من أجل تعليب السردين وتحميله على البواخر ومن ثم افراغ السفن منها في المرفأ المقصود. فبما أن السردين هو نوع من

الأسماك، أليس من السهل اذن أن تُجمع معاً وتُساق حية تحت سطح الماء الى المكان المطلوب فيه؟

وان زجت سمكة غريبة نفسها مع الجمع، فمن السهل جداً تمييزها وسحبها بعيداً أو القضاء عليها ان اقتضت الضرورة، فليس كل سمكة سردينة، أليس كذلك؟

أماّ بطريقتهم القديمة في نقل السردين، فكانوا يحتاجون الى شاحنات ضخمة مع ساحبة كبيرة ومكائن معقدة. جعلت فكرتي الجديدة من تلك العملية شيئاً ممكناً بالنسبة لمركب صغير مثل «ريج»، وبمقدوره التغلب على مشاق تلك المهمة.

كانت مجرد نظرية طبعاً، ولكنها نظرية مغرية جداً، وزرعت في نفسي حافزاً للقيام بتجربتها. حدث مصادفة أن تقرر ارسال دفعة كبيرة من السردين الى «الاسكندرية» في شمال أفريقيا. كانت المجموعة قد اصطيدت وأُعدت للتمليح، ولكني كبحت تلك العملية. وحسب اقتراحي، قاموا باعادة السردين الى الماء، وسيقت جميعاً على هيئة سرب كبير، وخولت مع صديقي «لوم» بمهمة قيادتها. وقف «لوم» خلف العجلة،

في حين وقفت أنا والسوط في يدي، أُخفي نفسي خلف الدقل المائل(*)، وكلما رأيت سمكة غريبة تحوم حول السرب، وجهت اليها ضربة مناسبة على أنفها.

سارت الأُمور بنجاح منقطع النظير، وكان السردين يسبح معنا بمهارة، وظلت الأُسماك الغريبة على مبعدة. بدأ الظلام يتراخى وبدأ معه النعاس يتسلل الى أجفاني انه عمل شاق. لم يبق لنا وقت للنوم، فأحدنا يقود السفينة والآخر يتعهد السرب كان بمقدورنا تحمل ذلك ليومٍ أو يومين. بَدَت رحلتنا طويلة طويلة، فأمامنا يلوح المحيط والمناطق الاستوائية. بدأ القلق يساورني ويتغلغل في داخلي. هل سننجز ما تعهدنا به؟

أخيراً اتخذت قرارا صممت فيه على الاستعانة برجل آخر، ببحار. وقف الحظ الى جانبي هذه المرة أيضاً، كنا قد دخلنا تواً في (القنال الانكليزي)، ودانينا ميناء (كاليه) الفرنسي الذي لايفرغ من البحارة الباحثين عن عمل. في ذلك المكان تستطيع استئجار عريف للملاحين، أو بحار، أو قائد للدفة. حين وصلت الشاطيء، أرسيت سفينتي، ومن ثم أرسلت «لوم» لاستخدام أحد الرجال.

* الدقل المائل :

تلك كانت غلطة طبعاً. لأن اختيار ملاحٍ لسفينة عمل ليس في مقدور الجميع انجازه ومع كل المثابرة والجهد اللذين اتسم بهما «لوم»، الاّ أنه كان محتاجاً الى زمن للوثوق به في مثل هذه المهمة. كان عليّ الذهاب بنفسي. ولكن في الوقت نفسه كان سرب السردين عهدة جديدة في رقابنا ويحتاج الى رقابتي الشخصية كذلك، فماذا لو تفرق أثناء غيابي، سأفقد عندئذٍ ثروة مالية ضخمة، هذا اضافة الى العار الذي سيصيبني من جراء ذلك. والأكثر من هذا كله والأهم هو أن فكرتي الغظيمة في تسيير أسراب السردين ستذهب أدراج الرياح ولن يعمل بها بعد الآن.

أنت تفهم ما أعنيه: ان فشلت هذه المرة، فلن تكون هناك مرة ثانية فليكن ما يكون، أرسلت «لوم» الى ميناء «كاليه» وارتحت جالساً على كرسي هزاز على ظهر المركب. كنت أقرأ جريدة وأراقب السردين في الوقت نفسه كان منظره رائعاً وهو يتمايل بخفة ونشاط، تتلألأ قشوره تحت أشعة الشمس.

عاد «لوم» مع المساء برفقة الملاح الجديد.

بدا الرجل مناسباً للعمل. لم يكن صغيراً جداً ولا

كبيراً جداً. نعم، كان قصير القامة بعض الشيء، ولكن عينيهِ متوقدتان ذكيتان، ولحيته مثل لحية قرصان من الزمن الغابر. تقول الاشاعات أن القراصنة يمتازون بشعرهم الأحمر، وهذا الملاّح أسود الشعر كغراب. ألقراءة والكتابة من مهاراته، لايدخن، حسن الهندام اضافة الى معرفته بأربع لغات - الانكليزية، الألمانية، الفرنسية، الروسية. كان للملاّح الجديد اسم غريب نوعاً ما، «فوكس»، ولكن الانسان ليس باسمه. ثم همس «لوم» في أُذني بأن هذا الملاّح يعد صاحب أكثر يدين خفة في «كاليه».

وهذا هو مرادي فان بي حاجة لشخص قادر على القيام بالأعمال الصغيرة المختلفة على ظهر السفينة. هذا بجانب كون أدوات الابحار وعدده تحتاج الى أيادٍ خفيفة رشيقة.

باختصار قررت تشغيله، وكتبت اسمه في قائمة محتويات السفينة مع شرح قصير لواجباته على متنها. ثم طلبت من «لوم» مرافقته الى حيث سريره. بعد الحصول على غايتنا، نشرنا الأشرعة، ثم استدرنا على عقبينا وسرنا على صفحة المياه نقود سرب السردين برفقتنا.

أدركنا بعد مدة وجيزة بأننا طلبنا معونة شخص آخر في الوقت المناسب، ولحين قمنا بذلك، كان الحظ يحالفنا مع الرياح التي كانت رقيقة هادئة ولم يحدث وأن غضبت أبداً. أما الآن، فقد تبدل حالها وبدأت تضرب وجوهنا بوحشية. ولوكانت الأحوال غير الأحوال، لجنبت نفسي وطاقمي المشقة ولألقيت بالمرساة؛ ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ذلك السردين، فهو لايهتم للرياح ويسبح للأمام بسرعة قصوى، هذا اضافة الى أننا لا نستطيع التخلف الى الوراء. لذا وجب علينا تغيير وجهتنا. بهذا القرار، أوكلت الى «لوم» مهمة السردين، وأخذت مكاني خلف عجلة القيادة، وعندما تنامت سرعة اليخت وازدادت، أطلقت أمري:

- «استعدوا !»

كان «فوكس» يقف بكسل ويداه في جيبيه يراقب الأشرعة بشغف شديد، فقلت له أمراً:

- فوكس! امسك بالشراع الرئيس!»

قفز من مكانه ووجه اليّ نظرة حائرة، ثم بدأ بسحب قماش الشراع قلت له : «توقف!»

ومرة اخرى رفع اليّ وجها حائراً متسائلاً.

أدركت الآن أن «لوم» أحضر لي ملاحاً ليست البراعة من صفاته. انه لا يعرف الأشياء الأولية في الابحار. من طبيعتي أن أحتفظ بصبري وأُسيطر على أعصابي، ولكنني الآن غاضب جداً.

قلت بنفاذ صبر: «لماذا بحق السماء أصبحت بحاراً يافوكس؟»

أجاب: «ولكنني لست بحاراً أبداً. لقد مللتُ العمل الرتيب، فنصحني أصدقائي بتغيير نمط حياتي.....»

قاطعته قائلاً: «بالمناسبة، لماذا أُطلق عليك صاحب أرشق يدين إذن؟»

أجاب: «نعم، هذا صحيح، ان لي يدين رشيقتين لأنهما توفران لي لقمة عيشي اليومية ولكن ليس بالطريقة التي تفكر بها، انني غشاشٌ محترفٌ في لعب الورق.»

أحسست بفكي يسقط الى الأسفل.

أُحكم أنت، ماذا عليّ أن أفعل لشخص كهذا؟»

ولكي أتخلص منه يجب عليّ العودة الى «كاليه» وبهذا نخسر يوماً آخر من التأخير كانت الريح تعلو وتعلو في هياجها، وان استمرت هكذا فسنودع سردييننا. ومن جهة أُخرى فان حمل غشاشٍ محترف في لعب الورق كان

ثقيلاً سخيفاً جداً. كما أنه لايفهم كلمة واحدة مما آمرهُ به، ولا يعرف اسماً واحداً من أسماء الحبال. كنت تائهاً.

ولكن بعد حيرة داعبتني فكرة رائعة. انني أملك مجموعة من الورق هنا. فأنا أُحب اللعب عندما يكون تسلية فقط.

كانت اللعبة رائعة ومشوقة، اكتشفت فيها أن «فوكس» له يدين خفيفتين كما ليس لأحد غيره مثلهما، وخاصة عندما يفهم المطلوب منه. انه يعرفُ الورقَ واحدة واحدة ومن جهتيه، فضلاً عن كونه لايُخطيء الاختيار حتى في حلكة الليل.

مضينا في لعبنا، وكان البحر قاسياً في غضبه. لم يكن ليهمني شيء لولا سرب السردين. كيف سيتصرف افراده في الجو العاصف؟ وعلى كل حال فلسنا مرتبطين بموعد محدد للتسليم، وليست بنا حاجة للمخاطرة والمجازفة بالشحنة.

الفصل السادس

حيث يبدأ بسوء فهم وينتهي بتملص غير متوقع

انحرفت الى الجهة اليمنى قرب جزيرة «وايت». ووصلت الى «ساوث امبتون»، فألقيت بالمرساة قرب الساحل. تركت «لوم» ليراقب السردين، في حين احتوانا زورق صغير مضينا فيه مجذفين الى الساحل. وصلنا الى منطقة جميلة فيها مزرعة خضراء بديعة بمنظرها، طرقها مكسوة بالرمل. واللافتات مثبتة في كل مكان «ملك لِـ

«ارشيبالد داندي». ممنوع المرور».

وقبل أن نمضي في سيرنا بضع خطوات أُخرى، وجدنا أنفسنا محاطين بحشد من الرجال في كامل هندامهم. لم يكن بوسعي وقتها أن أُميزهم، ربما السيد «ارشيبالد داندي» وعائلته، أو السكرتير الأجنبي مع حاشيته، أو جماعة من الموظفين السريين. ولكن بعد أن دار بيننا حديث، فهمنا منه أنهم ليسوا الاّ جماعة من الشحاذين!

ان التسول في انكلترا محظور تماماً، ولكنه مسموح ان كنت ترتدي الملابس الفاخرة، وبذلك يعد مجرد مساعدة رجل لأخيه الرجل. لذا قمت بتوزيع بعض القطع النقدية الصغيرة لمتسولين أكثر أناقة مني، ومضينا في طريقنا. ثم التقينا بعد قليل بمجموعة أُخرى من النوع نفسه، طويلي القامة كجذع الفاصوليا. حين اقتربنا منهم، خلع أحدهم قبعته وانحنى بطريقة دبلوماسية. في تلك اللحظة بحثت في جيبي، فوجدت بنسا ألقيته داخل قبعته على الفور. توقعت أن أُسمع شكرا متواضعا، ولكن بدلا من ذلك، احمرّ وجه الرجل واحتقن غضبا، ثم وضع نظارة أُحادية الزجاجة على عينه وقال بتأثر:

— «أنا «ارشيبالد داندي».. من تكون حضرتك؟»

أُجبت معرفا اياه بنفسي: «قبطان البحر كرستوفر رنجل».

قال: «انني سعيد برؤيتك. والآن دافع عن نفسك أيها القبطان!»

حاولت الاعتذار، الاّ انه لم يكن ليستمع، فقد كان غضبه في سورة رأيته يخلع قبعته ويتركها لتستقر على أرض الحقل، ومن ثم خلع معطفه.. حسنا، لقد قبلت التحدي، فتخلصت من معطفي بسرعة ووقفت متهيئا.

كان «فوكس» حياديا للموقف، فقد تنحى جانبا، وبمثل طريقة حكم المباراة قال:

— «تحضر. ابدأ!»

بدأ السيد داندي يحوم حولي ويلوح بقبضتيه وينفخ كما ينفخ الصبيان أثناء لعبهم لعبة القطار. ثم بدأ هجومه.

أرجحت قبضتيّ، ولكنني أوقفتهما في الوقت المناسب، فقد أُدركت، نظرا للاختلاف الواضح بين طولينا، أنني أينما اوجه قبضتي، فانها ستستقر تحت حزامه. وهذا مخالف لقواعد الملاكمة. في تلك اللحظة، وجّه قبضته وأجهز على مافوق رأسي من هواء. وبهذه

الطريقة انتهت الجولة الأولى من الملاكمة.

لاأدري النتيجة التي كانت ستؤول اليها المباراة لو لم نأخذ بفكرة «فوكس» البارعة.

قال: «اصعد على ظهري ياقبطان»، ثم انحنى ليسمح لي بارتقاء كتفيه. وبعد أن اعتليته، أصبحت في مستوى مساو لخصمي.

قلت: «لنبدأ يافوكس».

فصاح من تحتي: «ابدأ!»

ونفذنا الأمر.

كان السيد «داندي» ملاكما جيدا، فقد وجه لكمة مؤلمة على انفي. ولكن استذكار مآثري في الملاكمة أيام الشباب حثني وأنا أعتلي «فوكس»، فوجهت لخصمي لكمة قاتلة على ذقنه من الجهة السفلى.

تسمر في مكانه لحظة، ثم أغمض عينيه وأنزل ذراعيه. وبلا توقع انهار الى الأرض. أخرج «فوكس» ساعة من جيب معطفه وبدأ العد. ولكن السيد «داندي» لم يفق الا بعد مضي أربعين ثانية. مسح ذقنه، ونقل نظراته فيما حوله باستفهام، وحين وقع بصره على كلينا، قفز واقفا وبدأ بالتقاط ملابسه من على الأرض.

قدمت له نفسي للمرة الثانية واعتذرت كذلك، ومن ثم شرحت له سبب سوء الفهم الذي حصل بيننا. وبعد أن تصافحنا، دخلنا في حديث خرجنا منه صديقين حميمين. عرض عليّ نزهة في مملكته، ثم قدم لنا الشاي في قصره الواسع. وأثناء مغادرتنا، طلبت منه اعادة الزيارة الينا على ظهر اليخت.

كان السيد «داندي» سعيدا باليخت، وبدأ يعد على أصابعه:

– «اليوم هو الخميس، اذن الغد هو الجمعة ويأتي بعده السبت، أليس كذلك ياسيد رنجل!؟» ثم صاح: «القدر وحده هو الذي بعثك! ففي يوم الأحد القادم سيجري سباق وطني عظيم لليخوت، ويجب أن تفوز به. سآتي معك كي يُطمس أنف السيد «بالدون» في الوحل».

في الحقيقة أنني لم أفهم قصده حينئذ، ولكن السيد «داندي» أوضح لي كل شيء فيما بعد، واتضح بأن له جاراً اسمه السيد «بالدون». وأن هناك منافسة قديمة العهد بينهما في كل شيء: عائلتاهما، أربطتهما، غليوناتهما، ولكن جدلهما الأساسي هو اليخوت. فكلاهما من أصحاب اليخوت المتأصلين. وعندما تدخل المسألة في

سباق اليخوت، فانهما يهبان نفسيهما وحياتهما لكسب السباق والاستهزاء بالآخر.

وكون السيد «داندي» رجل علم ومعرفة، وبنظرة واحدة على «ريج»، ثمنّ صناعتها ونوعها، وأكد بأن هذه السفينة قادرة على الفوز في أي سباق، وفي أي طقس.

قال: «وافق أرجوك. انه سباق ممتع، وهذا اليخت انجاز عظيم. خذ بكلمة رجل. انك ستفوز بالسباق، ستفوز بالجائزة الملكية العظيمة اضافة الى جائزة الأدميرال «نلسون».

ألموضوع ليس شهوة للجوائز، ولكن لماذا لا أُوافق؟ كانت سفينتي من الدرجة الأُولى، ورفاقي مناسبين للمهمة. وسأقود الدفة بنفسي. أمامنا فرصة كبيرة للفوز.

كنت قد أعطيته وعدا حين تذكرت سرب السردين. من سيأخذ على عاتقه مسؤولية العناية به؟ شرحت للسيد «داندي» بأنني مقيد اليدين والقدمين بهذا السرب، فصعقه الخبر وقلب ترتيباته رأسا على عقب، ولكنه وعدني بترتيب الوضع، وكان الرجل عند كلمته، ففي اليوم نفسه سمح لي بقيادة السرب الى داخل رصيف

أميرالية «بورتسماوث».

بعد أن تخلصنا من الحمولة، انصرفنا الى تجهيز اليخت للسباق، فمسحنا جوانبه بالشحم، وأخرجنا من عليه كل مايعيق حركته السريعة، وكأننا نوشك أن ندخل في معركة. وانتهينا برفع حبال الأشرعة والصواري المتوترة.

في صباح الأحد وصل السيد «داندي» الى «ريج» في زي ناصع البياض والغليون بين أسنانه. كان يحمل صندوقين في هيئة قفصين مملوءين بالويسكي وماء الصودا، وقد ثبت نظارته أُحادية العدسة على عينه. ثم أخذ مكانه على كرسي هزاز على ظهر اليخت وبدأ باشعال غليونه.

لابد أنك تعرف كيف يكون سباق للسفن: حشود من الأشرعة، والسفن، والأعلام. جماهير من المتفرجين على الساحل. نظرت، فأصبح كل مافي جسمي نشيط، متأهب لكل جديد. انني رجل متزن العقل عموما، ولكنني شعرت بالاضطراب والهياج حين وقفنا على خط البداية في انتظار اشارة الانطلاق. وأُخيرا نزلت الراية، ونشرت الأشرعة. بدأنا السباق ببراعة تامة، كنا نسبق الجمع بمسافة بعيدة ونشق الأمواج الى الأمام. لقد كان

خيط الفوز بين ايدينا.

مضينا في السباق حتى نهايته تقريبا، ولكنني ارتكبت خطأً قرب النهاية. فقد همست في أُذني قناعتي الذاتية بأن أزيد السرعة كي أصل الشاطئ بوقت قياسي. ولكننا بهذا التهور، فقدنا اتجاه الرياح، وراحت الأشرعة ترفرف وتنصفق. تكاثفت السواعد وبدأ «لوم» و «فوكس» يتلاويان مع الصاري. ويالسوء الحظ. كل جهودنا ذهبت أدراج الرياح.

كانت «ريج» تتسلق قمم الأمواج، ومنافسونا في أعقابنا تماما وعلى رأسهم السيد «بالدون».

ألقى السيد «داندي» نظرة الى الخلف، ثم دمدم بكلمات واتجه نحو صندوق الشراب. صبَّ لنفسه شيئا من الوسكي، ثم دفع الفلينة عن قنينة ماء الصودا. طارت الفلينة في الهواء ككرة مدفع، ولاحظنا في تلك اللحظة قفزة اليخت الى الأمام بعض الشيء.

ومع أنني كنت منهكا، الاّ ان لفائف رأسي كانت تعمل كالعهد بها. لست أنا الذي يغرق همومه في الوسكي. تذكرت بهذا المثل القائل: «لاتوجد سفن رديئة، ولارياح شديدة، ولكن هناك ربابنة سيئين».

ومهما قلت أو فعلت، فلن أكون قبطانا سيئا. انني قبطان جيد، متمكن، ولاأمدح نفسي في ذلك. ساقني هذا التفكير الى فكرة.

وجهت لـ «فوكس» و «لوم» أمرا، ثم اتخذنا نحن الثلاثة مواقعنا في مؤخرة اليخت وبدأنا ندفع الفلينات من على قناني الصودا.

أعجب السيد «داندي» بالفكرة، وراح يفتح معنا، ثم أخرج منديلا من جيبه، واستخدمه في توجيهنا. أصبح الوضع أفضل الآن بحيث أننا عملنا بشكل منظم.

قال بصوت عال: «استعدّوا خلف الأسلحة، اطلاق!»

طارت فلينات ثلاث بصوت رعدي، وضربت نوارس الماء بقذائفنا التي اخترقت طريقها فوق الأمواج. تدفق ماء الصودا صاعدا فائرا حتى أن المياه من خلف السفينة هاجت وأزبدت. استمر السيد «داندي» في هتافه، وكان منظرا عظيما رائعا كمعركة «ترافالغار».

مضت السفينة في تقدمها على مبدأ الصاروخ الذي ابتكرناه والذي زاد من سرعة يختنا. لم تمض مدة طويلة

حتى استدرنا حول «قنة الجبل»*، فامتلأت الأشرعة بالهواء وتوترت الحبال.

ومرة أخرى لاحت بشائر نصرنا التي كانت توشك أن تنزلق من بين أيدينا.

خلفنا منافساً خلفنا، ثم آخر ولم يبق أمامنا غير مركب «بالدون». وبعد جهد اقتربنا منه ووازيناه، ثم تقدمنا عليه قليلا... في تلك اللحظة عزفت اوركسترا الشاطئ أنغامها الرائعة. وعلت وجه السيد «داندي» ابتسامة النصر.

قال: «انجاز رائع أيها الرفاق!»

وانطلقنا بسرعة قصوى نحو الرصيف لايعيقنا عائق.

في اليوم التالي، ملأت أخبار السباق الصحف المحلية، وكان في مقدمتها نصرنا. جاء أصدقاء لم يسبق لنا التعرف اليهم لتهنئتنا. اننا لم نحصل على أصدقاء كثيرين فقط، وانما على عدد أكبر من. الأعداء كذلك.

كان السيد «بالدون» خلف ماحدث، فقد ترأس حملة من الاشاعات، وبدأ يحيك المكائد التي انتهت جميعها بما لايسر. كل ذلك تم تدبيره سريا، ولم تكن في

* قنّة الجبل: نتوء خارج من جبل وداخل في بحر.

بالنا أدنى فكرة عنه عندما ذهبنا لتسلم الجوائز.

اجتمع نادي اليخوت في أكثر الأجواء صفاءا وأدبا في احدى غرف الجمرك القديمة.

كان يُعَدُّ شرفا عظيما أن تزن الجوائز أكثر من وزن الفائز. اقترح النادي أن أُعادل أنا كفتي الميزان، ولكنني قلت أن يقف طاقم اليخت كله في كفة، فأخذوا باقتراحي. وقف السيد «داندي» و «لوم» و «فوكس» وأنا في احدى كفتي الميزان، أما الكفة الأخرى، فقد حُملت بالجوائز: أقداح، كؤوس خمر، مجموعة كاملة من الأواني الفخارية، ومن ثم أضافوا كومة من الميداليات والباجات وقليلا من الحلي الصغيرة. وعندما تعادلت كفتا الميزان، بدأ رئيس نادي اليخوت كلمته. لاأذكر كلماته على وجه الدقة، ولكنه كان صدوقا جدا في عباراته «نصر أبيض..» «أفضل الأفضل...» «مثال رائع لشبابنا...» وعبارات أُخرى بهذا المعنى.

كنت متأثرا جدا، ولكن حالما أنهى الرئيس كلمته، رفع السيد «بالدون» يده طلبا في الحديث.

سأل: «هل الرئيس الموقر على علم من أن الفائز القبطان «رنجل» قد اعتدى على تقاليد نادينا وذلك

باعتلائه فرسا وهو في بزة البحر؟» ثم أخرج جريدة نرويجية تظهرني مبتسما على ظهر الفرس.

لاأنكر أن تلك الصورة لاتناسب بحارا، لذا لم أعجب عندما تناهت الى أسماعي همهمات وأصوات ارتفعت في سكون القاعة. مهما يكن، فأنا الفائز. والفائزون لايحاكمون. كان ذلك جوهر ماقاله الرئيس. غاصت الأنوف، وشعرت للحظة بأنني قد أصبحت على السطح حتى عاد «بالدون» للحديث مرة أخرى.

قال مكملا: «وهل الرئيس الموقر على علم بأن المشار اليه القبطان رنجل قد حصر في الميناء حملا من السردين كان قد جمع للمناطق الخارجية التابعة لانكلترا، وبأن طريقة النقل التي اقترح السيد «رنجل» القيام بها تُعَدّ مؤذية ومضرة بمصالح مالكي السفن الذين هم عرضة للسلطة الانكليزية؟»

تلك كانت الورقة الرابحة بلاشك، فكل تقاليدهم وعرفهم جيدة، الا أنهم كانون يضعون مصالحهم التجارية فوق أي أمور عاطفية. أصبحت القاعة الآن في هياج وصخب، ومع ذلك لم يكن السيد «بالدون» قد أفضى بما في جعبته من أخبار بعد، فرفع من نبرة صوته

واستطرد:

– «وهل سيادة الرئيس على علم من أن السردين، (المشار اليه والذي كما قلنا يضر بمصالح مالكي السفن الانكليز تعد في الوقت الحالي ومن خلال مساعي السيد «ارشيبالد داندي» الحميدة وتستره المباشر)، قد حبس في الرصيف الأميرالي لجلالة الملك؟ وأخيرا، هل تعلم بأن الموما اليه «ارشيبالد داندي» قد انحط الى مستوى الجريمة بحق الله والملك، وبأنه قد أصرّ على المصادرة والاستيلاء على رسوم وشرف بريطانيا بجعل نفسه أجيرا وعمله كموظف سري لموسكو؟»

كلمته الأخيرة هذه لم تكن أقل من قنبلة. حتى أن جلبة القاعة المنتظمة انطلقت من آخر قيد لها. فالبعض استهجنوا وآخرون صفقوا، ومن ثم ترك الجميع مقاعدهم وانقسموا قسمين متعارضين وبدأوا يقدمون آراءهم وكأنهم في حالة حرب.

عند هذا الحد، لم يستطع السيد «داندي» السيطرة على نفسه أكثر، فقفز من على كفة الميزان وألقى بنفسه على السيد «بالدون». كانت تلك الحركة كضوء اخضر لمشاجرة عامة.



كان من المحتمل أن ننسحق تحت الأقدام في الشجار الذي تلا ذلك لولا جوائزنا التي أنقذتنا. فحالما قفز السيد «داندي» نازلا من كفة الميزان، اختل توازنها، فارتفعت ونحن عليها كالحلزون الى السقف، ورحنا نراقب النزاع من الأعلى دون أن يمسنا أحد.

أقول لك هنا أنها كانت معركة حقيقية. فقد غرق الجو بأصوات غريبة، فشخير هنا، وزفير هناك وصهيل أو زمجرة في مكان آخر. وتسمع في جهة اخرى الصوت المكتوم لارتطام الجماجم الانكليزية أو سحق الأثاث الانكليزي القديم.

حمل الرجال الموقرون الى الخارج بضرب بعضهم البعض بكل ماتصل اليه أيديهم. وأصبحت الأرض مزروعة بالاسنان الحقيقية منها والاصطناعية، وبقطع الملابس وأجزاؤها الممزقة.

وتدريجيا سارت المعركة نحو الخمود، وسقط أكثر المحاربين على الأرض أكواما أكواما. وحين نزلنا فوق احدى كومات هذه الأجسام المنبطحة، وأردنا مغادرة المكان، تنحنح السيد «بالدون» قليلا، وقال بحسرة عميقة:

– «وهل تعلم...».

في تلك اللحظة استعاد الرئيس وعيه أيضا ورفع نفسه على أحد عكسيه، ثم دق جرسه وقال:

– «كلا، لا علم لي بشيئ». ثم سقط ثانية.

عم السكون المكان مرة أخرى، فانتهزنا الفرصة وشققنا طريقنا نحو الخارج بين أكوام اللحم. تنفسنا الصعداء، أخذنا شهيقا عميقا وانطلقنا نعدو بأقصى ماستطاعته أقدامنا الى حيث اليخت. حين وصلنا نشرنا الأشرعة واتجهنا صوب «بورت سماوث» في طلب السردين.

ولحسن الحظ لم تكن أخبار المعركة قد وصلت الميناء بعد، فقد سمحوا لنا بأخذ حمولتنا دونما سؤال، وتمنوا لنا رحلة موفقة. تركناهم على الشاطئ وابتعدنا. مرت ساعة من الزمن لاحت لنا بعدها جزيرة «وايت»، وهانحن نبتعد عنها نهائيا. اتكأنا على الشفير وسرحنا في تأملاتنا ونحن نراقب شواطئ انكلترا التي بدأت تتلاشى في الأفق.

مازال في جسدي رعشة من الأحداث الأخيرة «لوم» هو الآخر بدا متأثرا، الاّ أن «فوكس» كان سعيدا بنجاحه في اختطاف سلسلة ذهبية ومرساتها الصغيرة من

بين الجوائز. وانه الآن يفتش عن دمغتها الأصلية.

ولكنه بعد قليل بصق باشمئزاز وقال وهو يسلمني السلسلة:

– «في مجال عملنا يسحق الناس لامتلاكهم هذا النوع من الأشياء!»

تفحصت السلسلة، فاكتشفت سبب قوله هذا. ففي نهاية السلسلة كانت هناك علامة واضحة تقول «مصنع الجواهر الاصطناعية. صنع في انكلترا».

قلت وأنا أعيد اليه السلسلة: «لاتخف من السحق، فالبحّار بعيد عن المنال. كما أن المصنع المذكور حسن السمعة».

في تلك اللحظة صفق الشراع خلف ظهري، وفي اللحظة التالية كنت أتخبط في المياه، وأضرب الأمواج كالأعمى حتى تمكنت من الامساك بشيئ صلب. عندما توضحت الرؤية أمام ناظري، اكتشفت بأنني متشبث برجل «لوم». وهذا بدوره كان متعلقا برجل «فوكس»، في حين كان الأخير قابضا على السلسلة الذهبية التي أمكست مرساتها الصغيرة بجدار السفينة. تخيل الموقف! كانت «ريج» منطلقة الى الأمام بسرعة قصوى وطاقمها

بعيد عنها. تلك كانت نتيجة لاهمالنا، فقد أخذنا بالأحداث في مبنى الجمرك بحيث نسيت ربط عجلة القيادة بالسلسلة. لذا تأرجح الذراع الطويل للشراع* واكتسح الطاقم معه.

تلك السلسلة الصغيرة أنقذت حياتنا ما في ذلك شك. ولولاها، لانطلق اليخت بالسردين مخلفا ايانا وراءه.

بعد ادراكنا لحجم الموقف، أطلقت أمري بصوت عال:

– «اثبتا في مكانيكما!» ثم سحبت نفسي مقتربا من «لوم»، ومن ثم الى حيث «فوكس»، ومنه الى السلسلة التي قادتني الى اليخت. وبالطريقة نفسها تبعني كل من «لوم» و «فوكس».

ومرة أخرى وطأت أقدامنا أرضية السفينة. تفحصت السلسلة مرة أخرى. ماأعجب ذلك، لم تصب أي حلقة منها باعوجاج أو التواء. كانت صناعة من الدرجة الأولى!

قلت: «اعتن بها جيدا يافوكس».

* الذراع الطويل للشراع: عمود يستخدم لاطالة قاعدة الشراع.

ثم تناول كل منا كأسا من الرم ليكسبنا بعضا من الدفء. قضيت الدقائق العشر التالية على ظهر اليخت أراقب الأفق وأعيش في أحداث الأيام القليلة الماضية.

قلت: «الى اللقاء ياانكلترا العريقة السعيدة!» لقد قضينا حتما وقتا سعيدا هناك. أنهيت غليوني ودخلت مقصورتي.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي جاء «لوم» ليوقظني ويقول بأننا قد دخلنا الآن المحيط الاطلسي.

الفصل السابع

عن الحسابات الفلكية والخدع الحربية والفراعنة

لم يحدث كثير على ظهر اليخت في المحيط الاطلسي، عدا بعض الأحداث التي لا تستحق الذكر، ولكني سأذكرها لأكون دقيقا في قصتي.

أنت تعرف حتما، بأننا في البحر وحين لا نبصر أمامنا أرضا يابسة، فان ربان السفينة يقوم بتحديد موقعها وتبيان وجهتها بمساعدة الأجرام السماوية وهي الشمس

والقمر والكواكب والنجوم . ووجودها جميعاً بفعل الطبيعة نفسها ، أمّا أداة قياس الزمن الآن ، فهي مسألة مختلفة ، وحصيلة محاولات متعددة لأجيال سابقة .

قياس الوقت يُعد عملا دقيقا . في الغرب ، كانكلترا مثلا ، مازالوا يتباحثون في أمر الوقت ان كان موجودا فعلا أو لا . ألبعض يعتقد أن الوقت عبارة عن مقولة مجردة أو خيال ، ولو لم يكن موجودا ، فكيف لنا قياسه ؟ حسنا ، ان الناس يعدون الوقت مسألة تافهة عقيمة . هذا يعني أنه موجود وأن بحوزتهم كثيرا منه ، أمّا بالنسبة لقياسه ، فهي مهمة صعبة . وقد استغرق الناس أزمانا كي يضبطوا ساعاتهم .

لقد تم استعمال كل أنواع الساعات الجدارية . بدءا بالساعات الشمسية ، ومن ثم اخترعت الساعة الرملية ، وتلتها الساعة الجدارية ، وأخيرا الساعة المنبهة وساعات الجيب . ان الساعة المنبهة لا تستعمل في البحرية هذه الأيام ، فقد ساد اعتقاد بأنها ليست دقيقة بالقدر الكافي . ولكنني أظن أن أية ساعة أفضل من لاشيء .

كرستوفر كولومبس لم يستعمل أية ساعة البتة ، ومع ذلك نجح في اكتشاف اميريكا .

الساعات الجدارية ليست مناسبة لسفينة ، أمّا بالنسبة للساعات المنبهة ، فلا يمكن عدّها رديئة ابدا . ومع ذلك ، فهي لا تفيد ، لذا حين كنت أستعد للرحلة ، اشتريت ومن بين أشياء أُخرى مفيدة ، آلة لقياس الزمن (كرونومتر) .

اشتريتها ووضعتها في مكتبي . لم نكن نحتاجها مادمنا نبحر قرب الشواطئ . أمّا وقد أصبحنا في عرض المحيط ، فيجب أن أضع حساباتي . لذا نزلت الى المقصورة ، وأخرجت (الكرونومتر) ولكنني اكتشفت بأن هذا الشيء اللعين قد تلف تماما ، فقد كان يقرأ وقتا خياليا غريبا . عند ارتفاع الشمس ، يقرأ منتصف النهار . وعندما تنتصب الشمس فوق رؤوسنا ، يقرأ السادسة مساءا . نقرت عليها طرقتها ، هززتها ، ولكن من دون جدوى .

واذن . وجدنا أنفسنا في داخل المأزق . كنا نبحر الى الأمام بسرعة ولا ندري الى أين . وان بقينا على هذا النحو ، فسنفقد اتجاهنا تماما .

وصل الانقاذ من جهة غير متوقعة تماما .

حين كنا في انكلترا ، تسلمنا كثيرا من المؤن : أغذية معلبة ، حبوب بعض الحيوانات الحية . ومن بين تلك

الحيوانات ، كان هناك صندوق من الدجاج اشتريناه من منطقة «جرينوش» . كنا قد أجهزنا على مافيه وقتدئذ ، ولم يبق غير ديكين في الصندوق ، أحدهما أبيض والآخر أسود .

حين كنت أقف على ظهر المركب . والسدسية* في يدي ، سألت نفسي كيف لي أن أحدد موقعنا ، صاح الديكان معا في لحن : «كوكا – كووو !» .

انتبهت في تلك اللحظة الى ملاحظة مهمة وكان الباقي سهلا جدا . فكلا الديكين من منطقة «كرينج» ، بمعنى أن هذا هو وقت شروق الشمس هناك . انّ لي قدرا كافيا من المعرفة بالوقت ، ومع ذلك قمت بالتحقق اذ صعدت على ظهر المركب عند المساء والسدسية في يدي مرة أخرى ، وعند انتصاف الليل تماما ، صدح الديكان بغنائها الثنائي : «كوكا – كووو !» .

لقد اكتشفت طريقة جديدة لضبط الوقت ، انها حقا لطريقة رائعة ، ولوكان عندي وقت كاف ، لكتبت أطروحة عن الموضوع وبهذا أغني العلم .

باختصار ، تتضمن طريقتي الآتي : تأخذ ساعة مهما

* السدسية : آلة لقياس ارتفاع الاجرام السماوية .

كان نوعها حتى وان كانت لعبة أطفال ، المهم أن لها أرقاما وميلين ، وليس ضروريا أن يتحرك الميلان . أتركهما مثبتين في مكان واحد ، ولنقل أنهما مثبتان على الثانية عشرة كما هي الحال مع آلتي الزمنية (الكرونومتر) . نحن لانريد القيام بالحسابات اثنتي عشرة مرة في اليوم . مرتين تكفيان جدا . مرة منتصف النهار والأخرى في منتصف الليل . وبذلك توضح الآلة الزمنية ألوقت محددا مادمت لاتغفل عن اللحظة الصحيحة . وهذا يعتمد على كفاءة المراقب .

بهذا ابتكرت طريقة لاستعمال آلتي الزمنية (الكرونومتر) في الوقت المناسب لأن مؤننا في طريقها الى النفاد ، وقد تهرأت بطوننا من اللحوم المعلبة ، كنت أرى رفيقي يطيلان النظر في اتجاه الديكين .

لم نقرر بعد أيهما سيكون الضحية أولا . كانا متعلقين ببعضهما كثيرا بحيث لم يكن لنا قلب لنمنع به أحدهما عن صاحبة الآخر .

قلبت المشكلة من عدة وجوه مدة من الوقت ، وقررت تأليف لجنة مكونة من «فوكس» وأنا معه . ناقشنا المشكلة من كل جوانبها ، ولكننا لم نجد حلا . ثم اخترنا

«لوم» عضوا جديدا في اللجنة ، وبدأنا النقاش من جديد . برهن «لوم» وبلا توقع منا على رجاحة عقله ، ووضوح رؤيته وعمق تفكيره لأنه وضع المسألة على الفور في بؤرتها الصحيحة .

وبلا تردد قال : «أُقتل الديك الأسود» .

قلنا : «ولكن الديك الأبيض سيهزل من حدته» .

قال لوم : «هذا لا يهم لأننا سنأكله هو الآخر قريبا» .

لم يكن أمامي غير الموافقة . أمّا الديك فقد كان سمينا ، هشا ، لذيذا في مذاقه . جمعنا العظام بعد أن مسحناها مسحا ومثل ذلك فعلنا بالديك الأبيض أيضا الذي أكلناه بعد أيام قليلة .

بهذه الطريقة طفنا حول «بريتان» ودخلنا خليج «بسكاي» وهذا الخليج كما تعلم مشهور بعواصفه .

كنت مدركا ، فاهما لهذا الصيت ، لذا طلبت تركيز العناية بالسردين . ومرة أُخرى يقف الحظ الى جانبي ، فقد كان البحر رائقا كالمرآة . والى الجنوب أيضا كان الجو ملائما ، وقد خدمنا ورعانا طول الطريق الى (جبرالتر) . وهنا دخلنا في مشكلة ، فحين كنا نبحر بسرعتنا الكبيرة

نقود السردين ونمتع أنظارنا بمشهد الجبال العالية ، سئلنا من فوق الحصن البريطاني وتبعا للتقاليد :

- أية سفينة هذه ؟» .

أُجبت ومن دون أن يخامرني شك في شيءٌ : «ريج ، الكابتن رنجل» .

تقدمنا في السير ، وفجأة وعلى حدود البحر الأبيض المتوسط ، سمعنا صوتا عنيفا تبعه صغير رعدي . نظرت ، فرأيت فجوة ضخمة في أحد الأشرعة . المدافع كانت موجهة نحونا من كل الجهات ، المياه ترتفع أعلى من صارينا . ومن الجهة اليمنى انطلق نحونا أُسطول من السفن الحربية لمحاصرتنا . كان الموقف واضحا بما فيه الكافية . لقد هوجمنا من قبل قراصنة مجهولي الجنسية .

لم يبق للبسمة مكان على وجوهنا . تخيل : قراصنة ينتمون الى بحار الروايات القديمة . كلا ، لاشيءٌ قديم . فالحال موجود هذه الأيام أيضا . الفرق أن القراصنة في الأيام الخوالي كانوا يرفعون راياتهم* عند هجومهم على سفينة ما ، في حين يترك قراصنة اليوم راياتهم مخفية في القاع . لقد أُصبحتْ طرقهم واسعة الانتشار . ألا تقرأ

* راية القراصنة : راية سوداء تمثل جمجمة بيضاء وعظمين متصالبين .

الجرائد أيها الشاب ؟ كثيرا مانسمع عن قراصنة اختطفوا طائرة ، أو أخذوا رهائن ليطالبوا بفدية مقابلهم . أما في الماضي ، فلم يكونوا متعودين على اختطاف الطائرات ، لذا أتموا تنفيذ خططهم في عرض البحار .

نعود لقصتنا ، انني حتما لم أكن في موقع يسمح لي بالدخول في معركة معهم . فعندما تهاجم من قوى أعظم قدرة منك وأكثر عددا ، فان التكتيك الحربي البحري ينصحك بالتراجع السريع .

ولكن التراجع لم يكن ممكنا أيضا ، فليست هناك رياح لتساعدني هذا اضافة الى أن الشراع مثقوب .

لم يكن أمامي آنذاك غير القيام بخدعة حربية .

لذا أمرت رفيقي : «افتحا الأنوار !» .

ثم اخرجت حافظة التبغ من جيبي وأمرتهما بالتدخين . لم يكونا من المدخنين وهذا أمر مفروغ منه ، ولكنهما لم يجرؤا على عصيان الأمر في حالة القتال . لذا صنعا لنفسيهما سيجارتين ضخمتين وبدءا بنفث الدخان .

سحبت غليوني أيضا ، وخلال ثلاث دقائق غطّى الدخان مركبنا تماما وأخفاه عن عيون الأعداء .

عمل رائع ، أليس كذلك ؟

اختفينا ، ولكن حاجز الدخان هذا سيتلاشى قريبا بفعل الرياح . وبعد لحظة تفكير ، وجهت أمرا آخر :

– «أنزلا الأشرعة ، أخليا السطح من كل أجهزته وأدواته» .

غطى «فوكس» و«لوم» الأبواب الأرضية بشرائح خشبية ، واتخذا من المقصورة ملجأ لهما بعد أن ملأ كل منهما شقوقها بأقصى سرعة . في حين انصرفت أنا لجمع الأشياء الثقيلة ووضعها في رزمة ، ثم رفعها على الصاري بهذة العملية ارتفع مركز ثقل السفينه الى الأعلى ، ففقد المركب ثباته واتزانه ، وانحنى جانباً . وفي اللحظة التالية انقلب المركب عاليه سافلاً .

من الطبيعي أن أسقط في الماء ، ولكنني تسلقت قاعدة السفينه واستلقيت على مؤخرتها في انتظار التطورات . ليست بالمدة الطويلة ، انقشع بعدها جدار الدخان وأصبح أسطول القراصنة مكشوفاً أمامنا على بعد ستمائة قدم . والآن جاءت لحظة القرار ، نعم هذه لحظة قرارهم ، جلست على «رافدة القص*» وراقبت ما يحدث . وفجأة أبصرتهم يتبادلون الاشارات بوساطة

* رافدة القص : عارضة رئيسية او قطعة فولاذية تمتد على طول قعر المركب .

الاعلام الاشاري*

—«لقد أغرقت نيراننا الموجهة سفينة العدو. تراجعوا، فقد ظهر نوع جديد من الغواصات البحرية في المنطقة أيها الأدميرال (دون كانالي).»

وحالما أطلقوا اشاراتهم، انطلقو مبتعدين كالدجاج الهارب من غراب. ولا غرابة، فحتى في هذا الوضع المقلوب، بدت «ريج» عظيمة، مخيفة، رائعة.

لوحت لهم مودعاً، ثم غطست ونزعت الثقل من على الصاري، فانقلب اليخت مرة أخرى، وعاد الى وضعه الطبيعي. عند ئذ زحف «لوم» و«فوكس» خارجين وسألا:

—«كيف تسير الأمور؟»

قلت: «أنظرا أنتما.»

في الحقيقة، لم يكن هناك مايُرى، الاّ بعض آثار الدخان في الافق. ألقيت عليهم نظرة أخيرة من خلال التلسكوب ونزلت لأغير ملابسي. بعد أن عادت أشرعتنا ترفرف من جديد، التفتنا لأمر السردين. كان ذلك في الوقت المناسب أيضاً، فبسبب الجلبة والاطلاقات

*الاعلام الاشاري: نظام لاعطاء الاشارات بوساطة علمية.

النارية، نجح بعض السردين في الهروب من السرب، واختفى لايعلم الاّ الله أين. ومن جهة أخرى، فان كل أنواع الأسماك الضالة: السقمري، السردين، البُلْهَد (سمك ضخم الرأس)، وغيرها استفادت من عدم انتباهنا للسرب، فدست نفسها داخله. وجدتني تائهاً مدة. تخيل نقلي لحمولة من السردين الهولندي النقي، وأسلم مجموعة متنوعة من أردأ الأنواع. سيكون عاراً عليّ، لذا قضيت ساعتين كاملتين وأنا أضرب بالسوط حتى أنجزت غايتي.

بعد انتهائي احسست بيديّ تؤلمانني من كثرة الهز، ولكن لايهم مادام السرب قد عاد الى نقاء نوعه من الدخلاء.

ثم مضينا صوب (الاسكندرية). ميناءنا المنشود. لم يقف الحظ العاثر في طريقنا حتى أطلّت أمامنا شواطيء الاسكندرية بعد يومين. ألقينا بالمرساة في الطريق، ثم جمعنا أدوات الأشرعة. كنا متكاسلين ننظر الى المدينه ونتبادل الانطباعات عنها.

كانت مصر القديمة بلداً رائعاً. ولميناء الاسكندرية بالذات شهرةٌ عالميةٌ واسعة. ولكن في وقت زيارتنا لها

بصحبة السردين، لم تكن تغني فضول المسافر الأجنبي.

لا ريب أنك سمعت كثيراً عن مصر، أرض الفراعنة. ولكن الداخل اليها عن طريق ميناء الاسكندرية لايرى ذلك المشهد المحث، فرزم القطن في كل مكان، والمياة تغمر السد بعمق أُربعين قامة*. بامكانك رؤية العلم المصري يرفرف، ولكن كل شيء آخر كان انكليزياً: قوانين انكليزية، سفن انكليزية، رجال شرطة بريطانيون. والاختلاف الوحيد هو أن الفقر كان الأكثر وضوحاً، من مزارعين، الى صيادين وحتى الموظفين كانوا يسيرون حفاة الأقدام، هذا باستثناء المتسولين.

وأخيراً صعد الموظف المسؤول الى ظهر السفينة وتأكد من قائمة الشحن. دلنا على مكان في الرصيف، ثم بدأ بتفريغ الشحنة. سلمنا السردين عدّاً بالرؤوس، وكانت الحصيلة مفاجئة مذهلة لنا، فحوالي نصف السرب كان مفقوداً.

لايمكنني الجزم أُفقدت السردين بمحض المصادفة أم أنه قد أُصيب بمرض. ولكنه مفقود ونحن لانستطيع المناقشة أمام الحقائق، وقد قال الموظف عبارة بهذا المعنى

* القامه: مقياس لعمق المياه يساوي ستة اقدام.

أيضاً.

طبعاً، كان بمقدوري الرد عليه بوقائع وأُحداث ليس لها وجود، ولكنها قد لاتنفع كنت منزعجاً تماماً، وفجأة توضح أمامي كل شي، فقلت للموظف:

-(لحظة من فضلك، من قال بأن السردين يحسب بِعَدِّ الرؤوس؟ انه ليس بقراً أو عجولاً! زنه أولاً، ثم قدم شكواك!».

أدرك الموظف أنني لست ذلك الساذج الذي يستطيع وضعه كالخاتم في اصبعه، فقام بوضع الحمولة في الميزان. وماذا تتصور؟ لقد كان الوزن قيماً مثيراً للدهشة! قد تجد هذا غريباً بعض الشيء، ولكن هذا هو المرجو، فلو فكرت قليلاً: رحلة ممتعة، طعام وافر لذيذ، تغير في الطقس... كل تلك عوامل مفيدة للصحة. وقد استفاد السردين منها جميعاً وبنى عضلاته وجمع في جسمه بعض الشحوم.

برهنت فكرتي نجاحاً باهراً، وانتهت المهمة على أفضل وجه فقررت أن أُخرج في نزهة على الساحل، في الهواء الطلق، وأرتاد المناطق التي تستحق الزيارة.

ذهبنا الى الصحراء التي تكون أُكثر أراضي مصر.

يوجد هناك (اوتوبيس) كهربائي ينقلك الى داخل لصحراء، ولكن الركوب فيه ممل جداً، لذا قررنا تجربة لوسائل المحلية في النقل. اعتليت جملاً ذا سنامين، أما «لوم» فتسلق آخر ذا سنام واحد، وصعد «فوكس» على ظهر حمار. كان منظرنا يستحق التصوير.

بهذه الطريقة وصلت قافلتنا الى القاهرة. ان لهذه لعاصمة فوضى مختلفة، فهي تمثل مصر فعلاً، وكل انج ي ارضها ينطق بالقدم. كانت صحراء «صحارى» في لجهة المجاورة هناك يسكن البدويون وتنتشر أشجار النخيل، والأكثر من ذلك أهمية هي الأهرامات وأبو الهول، وآثار أُخرى قديمة. وقع قرارنا على زيارة الأهرامات أولاً. فقطعنا التذاكر ودخلنا.

لقد كانت عبارة عن ممرات سرية خفية فارغة، لم نشوهها أيادي الزمن مع مرور حوالي خمسة الآف سنة عليها، رأينا ماسحي الأُحذية في كل منعطف وعربات «الآيس كريم» بجوار محلات السلع في كل شارع. باختصار، لقد جعل اولئك الفراعنة من أنفسهم مفخرة.

أمضينا وقتاً نحدق بالكتابة الهيروغليفية والتوابيت الذهبية والمومياءات بداخلها، ثم رجعنا عندما أصبحنا في

الهواء الطلق مرة أُخرى، اكتشفنا عدم وجود «فوكس». انتظرنا لحظة، وكنا نوشك أن نتحرك للبحث عنه عندما رأيناه قادماً يعدو وهو ممسك بفكه. نظرت، فاذا بوجهه منتفخ أزرق اللون.

سألته مستفهماً: «من فعل بك هذا؟».

قال فوكس شاكياً: «كسرتُ قطعة صغيرة من التابوت كتذكار، فخرج ذلك الفرعون ولكمني على فكّي.».

قلت مستغرباً: هل فقدت عقلك يافوكس؟ لقد مات فرعون منذ خمسة آلاف عام!».

-«لو كان ميتاً، أكون ميتاً بهذا المنطق. هناك عصبة منهم أيضاً.»

-«عصبة من الفراعنة المصريين؟».

-«ولماذا مصريون؟ انهم بريطانيون، وهاهم يسيرون هناك!».

في تلك اللحظة رأيت جماعة من رجال الشرطة. وتذكرت أن الشرطة معروفة كالفراعنة تحت الأرض. كانوا بهيئة مخيفة، يلبسون خوذاتهم والهروات معلقة في أحزمتهم...

الفصل الثامن

حيث يأخذ فوكس استحقاقه، ثم يعد التماسيح، وينتهي باثبات موهبته الزراعية الرائعة

اعطيت «فوكس» ملابس جديدة حين عدنا الى اليخت وقلت له:

– «لاأريد أن أسمع مزيدا عن القطع التذكارية! هل هذا واضح؟»

كان فوكس نادما على فعلته وتعهد بعدم الاقدام على

مثلها ثانية. شفيت رضوضه وكدماته سريعا، فأبحرنا داخل النيل.

واخيرا لم يعد للشك وجود من أننا في افريقيا. فكل ماحولنا هو اللوتس والبردي وأسراب من الظباء ترعى على طول الشاطئ. وترى الأسود تتمايل بوهن وتراخٍ هنا وهناك. التماسيح تشخر في الماء، والسلاحف تدفئ نفسها تحت أشعة الشمس. كانت حديقة حيوان وليست أرضا.

كان «لوم» و «فوكس» سعيدين كطفلين صغيرين، يداعبان التماسيح بالعصي ويضحكان من أعماق قلبيهما، في حين كنت ممسكا بعجلة القيادة أبحث عن قرية مناسبة للتوقف وقضاء الليل.

أنت تدرك أيها الشاب، أنني لم أتكبد مشقة السفر على طول نهر النيل من أجل الفضول فقط. ولكن خطتي الأساسية للرحلة كانت في عبور المحيط الاطلسي والدخول الى المحيط الهادي عن طريق قناة «بنما».

لقد أجبرني السردين على تغيير خططي جميعا. فنحن الآن نواجه ممرا قاسيا، عسيرا خلال المحيط الهندي. وحين نصبح في عرض البحر، لاتوجد دكاكين او محلات. ومتى ماخرجت مبحرا بلا مؤن، فستبقى من

دونها. وبما أنني رجل حكيم، بعيد النظر، مقتصد، قررت تجهيز اليخت بالمؤن من مصر استعدادا للرحلة القادمة.

وأخيرا وقع بصري على قرية بدت مسالمة نظيفة، فأرسيت اليخت في خليجها، واتجهنا نحن الثلاثة الى السوق.

كان سكان القرية ودودين جدا، كما أن أسعارها معقولة، فاشترينا كمية من المواد الغذائية الممتازة، وزوجين من خراطيم الفيلة المخللة، وصندوقا من بيض النعام، وكثيرا من التمر، ثم أضفنا الساغو* والقرفة وفصوص الثوم وأنواعا أخرى من الأطعمة. حملنا مااشتريناه، ثم رفعنا الراية وكنا نوشك أن ننطلق عندما أعلمني «لوم» باختفاء «فوكس» للمرة الثانية.

وصلت الى حد فكرت فيه أن أغادر المرفأ من دونه، ولكنني لم أكن لأتخلى عنه بهذه الصوزة صحيح أن له طباعا غريبة، ولكنه كان يحاول ارضائي بجد بقلبٍ من ذهب.

متروك في مصر، حيث الاغراءات في كل خطوة.

* الساغو: دقيق نشوي يعد من لب نخل الساغو.

كنت متأكدا من أنه سيخطئ وينتهي امره الى السجن،
لذا قررت أن أحاول انقاذه. عدنا ثانية الى القرية ولم نزل
في مبتداها حتى شاهدنا حشدا وسمعنا ضحكا وصراخا.
ركضنا، فما الذي رأيناه؟ لقد زج «فوكس» بنفسه في
ورطة. لقد كان جاثما على الأرض، رأسه مدفون في
الرمل، مغطيا نفسه بقبعته. ورأينا نعامة ضخمة تخز
مؤخرته بمنقارها، وترفسه ككرة قدم. كان المشاهدون
يشجعون النعامة بالهتافات والضحك، ويصفقون لها كما
يصفقون لعروض السيرك.

صرخت بالنعامة، فنهض «فوكس» من شدة خوفه،
ثم عاد وأخفى رأسه في الرمل، فقد أصبح أمامه اثنان.

قبضت على «فوكس» من ياقته وهززته بقوة، ثم
أوقفته على قدميه ونظرت اليه بصرامة. ومرة أخرى بدا
وكأنه استسلم للمغريات على الرغم من الوعد الذي قطعه
على نفسه. لقد شاهد نعامة تجوب المنطقة، فزحف اليها
وانتزع ريشة من ذيلها كتذكار مرة أخرى. أمّا النعامة،
فمع أنها طير مسالم بطبيعته، الاّ أنه لم يقدر على ترك هذا
الاعتداء من غير عقاب.

أخرج «فوكس» الريشة ليريني اياها، ففكرت أن

أعيدها ثانية الى النعامة، ولكني قررتِ ألاّ أفعل. فمن
المؤكد أن ريشة جديدة ستنمو مكان المنتزعة.

ودعنا الجمع المرح، وعدنا الى اليخت، فنشرنا
الأشرعة وانطلقنا فوق مياه النيل. وصلنا البحر من دون
أية مغامرة والى الشرق توجهنا على طول الشواطئ
قاصدين البحر الأحمر وقناة السويس.

دخلنا القناة في وقت مبكر من الصباح. من الطبيعي
أن يستدعى قائد لقيادة السفينة على طول القناة، ولكنني
زرت هذا المكان من قبل، وأعرف كل حجر صغير في
قعره، لذا قررت أن أستغني عن القائد. أبحرنا، فوكس في
المقدمة، أنا أمسك بالمقود، و «لوم» يطبخ طعام الفطور.
بالمناسبة فان «لوم» طبّاخ ماهر، تخرج من بين يديه أطباق
فاخرة يصحو لرائحتها الموتى. وفي ذلك اليوم أيضا.. وفي
الصباح الباكر وضع «لوم» صديرية الطبخ، شمر عن
ساعديه، ثم أشعل الموقد. ألقيت اليه نظرة أثناء مروري
وتراجعت، لقد كان الجو حارا في الخارج، أمّا قرب
الموقد، فالجو يشبه دكان حدادة وبداخله منفاخ يعمل.
كان اللهيب يتناثر، والمقلاة تطقطق. هاهي الدجاجة في
احمرار لذيذ شهي، وليس لنكهتها مثيل في هذا العالم.

كان «لوم» أُستاذا في عَمَل المخللات والصلصات أيضا، فجذبت رائحتها الشهية كل المخلوقات الحية على طول قناة السويس ممن هم بمحاذاة الخلجان، ووقفوا يلعقون شفاههم. وبهذا كانت لنا فرصة ممتازة لدراسة الحيوانات المحلية، الذي عُدَّ انجازا قيما. فالى اليسار وقفت النمور ومجموعة من خنازير الجزيرة العربية، في حين تجد في الخليج الافريقي الأُسود والفيلة وقطعان الكركدن.

التفتت نحونا زرافة وأخذت نفسا عميقا، ومن الواضح أنّ قناعتها أوصلتها لقرار يؤكد بأن سفينتنا ليست الاّ مطعما عائما، لذا تبعتنا على امتداد أرض الخليج ترفع عنقها باتجاهنا، ولعاب الجوع يقطر من فمها.

في تلك الأثناء، جهز «لوم» طعام الافطار، وفرش مائدة لثلاثة أشخاص. وكل ماعليها من أحسن الأنواع: مفرش مائدة نظيف، وكذلك الأطباق والسكاكين والأشواك. أتستطيع تخيل المنظر؟ وأخيرا خرج من المطبخ والوعاء بين يديه، كانت ستكون وجبة لاتنسى لو لم يأت ذلك الحيوان المجتر الطويل الرقبة ويدس أنفه داخل الوعاء. عند ذاك صرخ بها «لوم» صرخة مروعة، ولكن الزرافة لم يكن ليقنعها شيئ بالابتعاد. لعقت شفتيها.

وضربت الوعاء بين يدي «لوم» فماذا تفعل في موقف كهذا؟ كانت القناة ضيقة جدا في تلك البقعة ولامفر منها، كما أننا لانستطيع الانتقال بالسفينة الى اليابسة والهروب من ذات الرقبة الطويلة. قد تكون ضربة مناسبة على تلك الرقبة كافية مؤثرة، ولكن ليس بمستطاعي ترك عجلة القيادة، فقيادة مركب داخل قناة مسألة فنية أمّا «فوكس» فكان مستغرقا تماما في استعراض الحيوانات، انه لايرى شيئا ولايسمع شيئا غير أصوات الأُسود والنمور. «لوم» هو الآخر كان مشغول اليدين بالوعاء، فأدركت أن ليس أمامه سوى التراجع السريع.

أُطلقت صيحة: «الى الوراء يالوم!»

قال: «حالا، حالا ياسيدي». ثم بدأ يتراجع نازلا بسلم السفينة الى المطبخ.

ولكن رقبة الزرافة قبلت التحدي ومدت رقبتها أطول. كان أنفها يتبع «لوم» الى داخل المقصورة. التصق هذا بالجدار في الزاوية البعيدة، ولكنه مازال في متناول الزرافة.

سمعت صيحته من داخل المقصورة: «انني في أقصى زاوية».

فكرت هذا لن ينفع، نحن نحتاج لطعام فطورنا. لذا خاطرت بترك دفة المركب للحظة كيما أسحق رقبة الزرافة بالباب. كانت نتيجة رائعة وأفضل كثيرا من أي صخب أو ضجيج. وقفت الزرافة متصلبة، ثم سحبت رقبتها بعيدا ورفعتها عاليا. كان غيظها واضحا، وفي سورة غضبها، التقطت ديك الرياح* ومضغته.

لست أُبالي بما فعلته، فأنا أملك ديكا احتياطيا للرياح، وربما عددا منه، فما يهمني الآن هو الطعام. لقد حصلت الزرافة على وجبة طعام لها، ومهما كان طعمه، فانه يبقى لذيذا شهيا جدا في تلك الصحراء حيث لايوجد مايمضغ غير القليل الى جانب الصخور.

أكلنا فطورنا بتلذذ وانطلقنا بعده مبحرين.

بحلول المساء عبرنا السويس. قضينا يومين في صمت مميت وبالكسل الاجباري أخذنا أقساطا من الراحة، أُصلحنا الأشرعة، رفعنا حبالها. وعموما قمنا بتنظيفات كاملة. بعد مدة بدأ نسيم عليل يهب علينا، فنشرنا أشرعتنا ودخلنا البحر الأحمر. في البداية سارت السفينة بهدوء وسهولة، ولكن بتسلل خيوط احدى الأمسيات،

* ديك الرياح: اداة على شكل ديك لاظهار اتجاه الرياح.

بدأت الريح تعلو والأمواج تتلاطم. ثم جاءت «ريح السموم»* بدواماتها من صحراء «صحارى». كانت حرارتها لاتطاق، وأحسسنا بعدم وجود هواء يستنشق، وارتفعت في الوقت نفسه أمواج طويلة عظيمة. لقد امتصت تلك الحرارة قوة «فوكس» الذي تماسك مدة، ثم انهار فجأة، حتى أنه لم يستطع الزحف الى حيث سريره، فتشبث بصندوق المؤن على ظهر اليخت وبدأ يئن ويروح لنفسه بريشة النعامة. كان منظره مؤسفاً، ولكن ليست بيدنا حيلة لمساعدته، فدوار البحر ليس مميتا كما أنه لايخضع لعلاج.

وفيما غير ذلك، سارت الامور على أحسن مايرام، وان جئت للحقيقة، فقد عادت علينا ريح السموم بالفائدة حين ساعدت في قيادة السفينة الى الأمام بسرعة. راقبت البحر بعض الوقت، وحين تأكدت من الطريق، تركت «لوم» قرب المقود واتجهت الى غرفتي كي أستعيد نشاطي باغفاءة. لقد أصبح «لوم» الآن رجلا متين البنية وبامكانه الوقوف مكاني.

تراجعت حرارة الجو بنزول الليل وهبت نسمة تميل

* ريح السموم: ريح حارة جافة مثقلة بالغبار.

الى البرودة، فاتجه «لوم» ليرتاح قليلا في حين عدت أنا الى مكاني خلف عجلة القيادة.

لهذه المناطق أمسيات رائعة الجمال. فهناك القمر يتأرجح في السماء كقنديل تحكمه سلسلة. وهناك البحر يبعث ضوءا أزرق اللون ساحرا. انه لمشهد من رواية الحياة.

بعد ساعة من ذلك، تبدأ كل أشكال الشعوذة بالزحف الى رأسك، أشياء كالسجادة السحرية الطائرة، والتنين المفترس، والأرواح الشريرة وغيرها كثير. وقفت هناك بعيدا عن العالم، وفجأة سمعت «فوكس» يتفوه بعبارات عديمة المعنى. أصغيت الى تمتماته، فأدركت ان سببها دوار البحر. كانت هذيانا صرفا، أو لمسة من حمى استوائية، سمعته يهمس:

– «تمساح ياسيدي، وتمساح آخر، وثالث...»

أحكمت ربط العجلة ونزلت الى المقصورة. أخذت جرعة من «الكينين»* ، وصعدت ثانية حيث كان فوكس مستمرا بعد التماسيح:

– «سبعة وعشرون تمساحا، ثمانية وعشرون تمساحا.. ثلاثون تمساحا...»

قلت: «هذا يكفي يا «فوكس». توقف عن عد تماسيحك. من الأفضل أن تأخذ هذا».

بهذه الكلمات، تقدمت خطوة للأمام، فتعثرت ببعض الأشياء الحية. وجدتني أسقط وينسكب المسحوق، ثم أطبق احدهم فكيه على اصبعي. لم أحتمل، فصرخت مستغيثا. سمعني «لوم»، فصعد مسرعا الى السطح. وحالما تقدم بضع خطوات، صرخ بأعلى صوته أيضا.

كان «فوكس» مستمرا في عده:

– «خمسة واربعون تمساحا... خمسون تمساحا...»

انها تجعل بدنك يقشعر، ولكنني أمسكت بزمام نفسي. أوقدت عود ثقاب وفي ضوئه رأينا ظهر السفينة يغص بالتماسيح. كانت تماسيح صغيرة حديثة الولادة، مخلوقات مسالمة غير مؤذية. ولكنها عموما ليست مخلوقات أنيسة. لذا التقطت المقشة، ودفعتها جميعا الى قفص الشحن بلا ضوضاء آخر.

بعد أن نظفت المكان من تلك الزواحف، بدأت عملية البحث عن مصدر الغزو. لقد كانت تخرج من شق

* الكينين: مادة شبه قلوية شديدة المرارة تعالج بها الملاريا.

في القفص الذي كان مفروضا ان يحمل بيض النعام. ربما حصل هذا الخطأ في القرية، أو ربما أرادوا زجنا في هذه الهزلية عمدا، فوضعوا لنا بيض التماسيح بدلا من بيض النعام. أمّا وقد رقد عليها «فوكس» في هذا الجو الحار، فقد فقست وخرج صغار التماسيح بسرعة.

بعد ان تأكدنا من سبب الحادث، من السهل ابطال تأثيراته. قمنا بوضع لوح خشبي يربط الشق بالشفير* ، فبدأت التماسيح تزحف عليه واحدا بعد الآخر وترمي بنفسها من فوقه. عندما انتهى الموكب، فتحنا القفص، فلم نجد غير قشور البيض. وهذا نموذج للأشياء العجيبة التي قد تحدث لك في المناطق الاستوائية.

وأخيرا تخلصت من الزواحف، ففكرت في الارتياح قليلا. ولكن لا، فالقدر يخبئ لي اختبارات جديدة.

كنا نبحر على طول شواطئ أرتيريا ، يقضي «لوم» وقته نائما في المقصورة، ويقف فوكس على ظهر المركب متأملا. هدأت الأمواج الطويلة وبات كل شيئ في سلام، وفجأة وبزوغ شعاع الفجر، سمعت صرخة رهيبة تخرج من البحر:

* الشفير: الحافة العليا لجدار السفينة.

– «النجدة!»

صحت فزعا: «أيها الرجال! تهيأوا للنجدة! وجهوا المقود صوب الصوت! مستعدون؟!»

كان الفريق على أتم استعداد في غضون ثوان، وقذفت أحزمة النجاة، الطوافات، ونهايات الحبال جميعا الى الماء. مرت بضع دقائق التقطنا بعدها رجلا مبتلا تماما وحملناه الى السطح.

كان يرتدي ملابس ضابط صف ايطالي متسخة تماما بفعل الوحل. هزّ نفسه ككلب، وبصق ما كان في فمه من أوساخ وقال:

– «الرقيب «خوليو بانديتو» في خدمتك ياسيدي«.

بخدمتي حقا!

قلت له: «أشكر نجوم حظك أيها الرقيب. أخبرني بما حدث لك وماعليّ أن أفعله نحوك».

أجاب: «لقد جرفتني عن الساحل ريح السموم بينما كنت تحت تأثير الخمر. أتوسل اليك أيها القبطان أن تنزلني على أي ساحل ايطالي!»

قلت: «أمرك غريب أيها الرجل. ألست تطلب كثيرا؟ هل تعلم كم تبعد ايطاليا التي تتحدث عنها من

هنا؟»

قاطعني قائلا: «ايطاليا في كل مكان».

ثم أشار يمينا وقال: «هنا».

وأشار يسرة: «وهناك. كل العالم هو ايطاليا».

مامعنى مناقشة شخص مايزال تحت تأثير الكحول؟ في تلك السنين استولى على السلطة في ايطاليا بعض السفاحين من أمثاله، وكانوا يخططون فعلا لوضع أيديهم على العالم بأسره، أو على رقعة كبيرة منه في أقل تقدير. وقد أنزلوا بعضا من خططهم تلك للتنفيذ أيضا:

فالمجند الايطالي له سلطة في حكم الحبشة (اثيوبيا)، والصومال وأرتيريا. اولئك الوحوش لم يحلموا بهذا في الأزمنة الغابرة.

ومع ذلك نراه في هذه الاعوام يتبختر هنا وهناك، رأسه مرفوع وهو يطأ أراضي شعوب أخرى بقدميه.

ولكنني أحجمت عن مناقشة ضيفنا الاجباري على أمل الخلاص منه بأسرع وقت ممكن فقلت موجها حديثي اليه:

– «حسن جدا، في أي مكان بالتحديد تفضل النزول؟»

أجاب: «مارأيك بتلك الصخور؟»

ومن دون أن يخامرني أدنى شك، صوبت وجهة اليخت نحو الجهة الصخرية من الشاطئ. أرسيت اليخت، وجهزت له طريقا ينزل منه الى الشاطئ، في تلك اللحظة حياني تحية عسكرية وقال:

– «أشكرك كثيرا أيها القبطان. والآن، هل تتفضل وترافقني الى الشاطئ؟»

أجبت: «لاعليك من التشكرات ياصديقي، ولسنا نملك وقتا لاضاعته. انزل أنت وليرعاك الله».

قال: «أهكذا اذن؟» ثم أخرج صفارة ونفخ فيها بقوة، في تلك اللحظة نزلت علينا عصبة من السفاحين من خلف الصخور. وقبل أن أتمكن من استجماع أفكاري، كنت أنا القبطان وفريقي بأكمله مربوطي الأيدي بالأصفاد. وأُمرنا بالسير.

اقتدنا في أراض صحراوية، لاشيْ من حولنا غير الصخور والتربة القاحلة المجدبة. بعد مسيرة طويلة نوعا ما، وصلنا الى مخيم عسكري. تركنا في الخارج ودخل أفراد العصبة الى آمرهم. دقائق تلت، ثم ظهر الزعيم وبيده صحن مليْ بالمعكرونة.

قال وأصابع المعكرونة بين اسنانه: «آها، غزاة

للأراضي الايطالية، أليس كذلك؟ صادروا القارب وضعوا السجناء في أعمال الحقل، ثم اخبروا «روما» بالحادث ودعها تقرر مصير السجناء».

وبهذا تم إجبارنا على القيام بأعمال الحقل. يوم من الكدح تحت الشمس الحارقة امتص كل ما في أبداننا من قوة. ولم يخطئ أحدهم ويعطينا وجبة طعام، والشيء الوحيد الذي دخل بطوننا هو حفنة من الحبوب استطاع «فوكس» سرقتها من حقيبة طعام البغل.

وفي المساء جاء الرقيب خوليو حاملا صحنا مليئا بالمعكرونة من حصته الشخصية تعبيرا عن شكره لانقاذنا حياته.

وكما يقولون، فليس للشحاذين خيار. قسمت المعكرونة الى ثلاث حصص متساوية وانهمكت في تناول حصتي. لم يكن «لوم» يعاني من فقد الشهية، فقضى على مافي صحنه في أقل من ثانية. ولكن «فوكس» شم المعكرونة وأشاح عنها بوجهه، ثم قال:

— «وهل هذه معكرونة؟ انها نوع رديئ جدا. عجبي منكم شديد، أتعيشون في طقس ملائم للزراعة وتأكلون معكرونة لاتستحق حتى اسمها، ومصنوعة من خليط من

أنواع الذرة؟ لماذا، بامكانك هنا أن تزرع معكرونة كافية لغل* ايطاليا بأسرها. اذهب واخبر زعيمك بأنني مستعد لبذر مقدار تجريبي من أجله. انني أحمل بعض النباتات الصغيرة على ظهر اليخت».

شعرت بعيني تجحظان، فقصته خيالية ملفقة تماما! ولكن هذا الغبي الأبله، «خوليو» كان قد صدق الحكاية وركض يبحث عن زعيمه. تخيل — لقد جعلوا من «فوكس» رئيسا لنا، وخصصوا له قطعة ارض. بعد أن أحضرت النباتات، أحيط الحقل بالحراس، ثم جاء الزعيم بشخصه كي يحثنا على العمل.

قال: «هذه أرضك التجريبية، ولكن ضع في معلومك ألاّ تقوم بمحاولة خداع معي. سأسلخ جلدك حيا ان ساورتك نفسك بخداعي».

أدركت ان الزعيم عند كلمته، فحاولت أن أعيد «فوكس» عن عزمه وعن مغامرته الطائشة، فهمست في أذنه:

— «تراجع قبل فوات الأوان، ستزجنا جميعا في ورطة».

ولكن «فوكس» اكتفى بأن هز كتفيه وقال:

• نغل: تعطي غلا او محصولا.

– «لاتقلق أيها القبطان، سيكون كل شيءٌ كما تشتهيه».

انهمكنا بحفر السواقي في حين قام «فوكس» بتكسير المعكرونة الى قطع صغيرة، ثم زرعها. تعاونا جميعا على سقي الأرض كل يوم ليراها الحراس. فماذا حصل بعد ذلك باعتقادك؟ في غضون ثلاثة أيام لا أكثر أطّلت البراعم! ظهرت سيقان صغيرة خضراء وأزهرت.

مشى «فوكس» قرب السواقي سعيدا جدا وقال للايطاليين وهو يدق التربة بقدميه:

– «هذه ليست رخيصة زائفة، انها انتاج طبيعي. انتظروا فقط، فلن يطول الوقت حتى تصبح هذه البراعم بطول الانسان، ثم تقومون بحصدها حيث تلقون بالأوراق الى الماشية، أمّا السيقان، فتكسرونها وتطبخونها. هذا هو ماأدعوه معكرونة!»

صدقه الايطاليون، وأكثر من ذلك، فقد صدقته أنا أيضا. فكيف يخامرك شك عندما ترى البراعم أمام عينيك حقيقية. سأل الزعيم «فوكس»:

– «وهل نستطيع زراعة حقل كامل منها؟»

أجاب «فوكس» بثقة: «بكل تأكيد، ولم لا. ولكننا لانملك بذورا كافية. واذا بذرنا النوع الذي تستعملونه،

فيجب ريها بالكحول، والاّ فلن تعيش».

– «حسن جدا، سأخبر رفاقي. اننا نملك كحولا كافية».

وفي اليوم التالي جلبوا لنا كل ماعندهم من معكرونة. ضربوها بالمِدرس لتكسيرها قطعا صغيرة، ثم بذروها، وبدأوا عملية السقي بوساطة برميل كبير مليءٌ بالكحول. ولكن الجنود الذين قاموا بالسقي أخذهم الأسف لرؤية المقدار الكبير من الكحول ينسكب ويتلاشى داخل التربة، فراحوا يجرعون منه بين حين وآخر.

بحلول المساء، وصل الزعيم وتفحص العملية، ثم بدأ يعب من السائل بنفسه. استمر من في المخيم يشربون ويعلو صخبهم شيئا فشيئا. في البداية صدحت الأغاني، ثم النزاعات والمعارك من بعدها. وعندما ارتفع القمر في السماء، غمر المخيم خدر، وامتلأ الجو بفحيحهم وشخيرهم. وهذا ماكنّا ننتظره. اتجهنا نحو الساحل مسرعين. صعدنا السفينة ونشرنا أشرعتنا هربا من السجن.

قلت: «قد تكون مهندسا زراعيا يافوكس. كيف تمكنت من جعل المعكرونة تنبت براعم؟ انها ليست بأقل من معجزة!»

اجاب: «خفة يد أيها القبطان. لقد احتفظت ببعض الحبوب في جيبي. وباضافة الحبوب، حتى أعقاب السجائر بامكانها انبات البراعم».

اذن، فهذا هو مربط الفرس. لقد نجونا منهم بسلام بفضل ذكاء «فوكس» وحضور بديهته. وفي اليوم التالي حاذينا «رأس غاردافوي» ووصلنا الجنوب.

الفصل التاسع

عن التقاليد القديمة وجبال الجليد

حيّانا المحيط بريح تجارية منتظمة، وسارت «ريج» الى الأمام بهدوء ودعة. خفت تلك الريح الرطبة من حدة الحرارة بعض الشيء، ولكن الدلالات أمامنا كثيرة تفصح عن أننا في المناطق الاستوائية. كانت السماء زرقاء صافية، وقد انتصبت الشمس فوق الرأس مباشرة. والشيء الرئيسي هناك هو وجود كثير من السمك الطائر. كان جميلا رائعا منظر تلك الأسماك! انها ترتفع

فوق الماء كاليعسوب لتسعد قلب كلب البحر . السمك الطائر هو رمز لفسحات المحيطات .

أعادت هذه المناظر لي ذكريات أيامي الماضية حين كنت شابا ، في رحلتي الاولى لعبور خط الاستواء .

خط الاستواء كما تعلم هو خط وهمي خيالي . في الأيام السحيقة الماضية لايتم عبور هذا الخط الاّ بعد تقديم عرض بسيط احتفالا بهذه المناسبة ، حيث يأتي نبتون* الى ظهر السفينة ويتحدث الى القبطان ثم يوجه ضربة لكل من يقوم بعبور هذا الخط أول مرة في حياته . أخذت العزم على اعادة احياء هذا التقليد القديم . كان سهلا الحصول على الأثاث وكذلك الثياب الخاصة ، ولكن مشكلتي الأصعب كانت الطائفة الاجتماعية ، فقد كنت البحار الوحيد والقبطان في الوقت نفسه ، طوعا أو كرها كان عليّ دمج الشخصيتين ، شخصية القبطان ، وشخصية نبتون ، ولكنني وجدت مخرجا ، فقد كنت أضع حوضا للماء على سطح السفينة في الصباح ، لذا اعتذرت بالمرض وأوكلت الأمر الى «لوم» الذي كان سعيدا جدا أن يأخذ على عاتقه توجيه الأمر ، وبدأ في

* نبتون : اله البحر عند الرومان

الحال يأمر «فوكس» .

في غضون ذلك أغلقت على نفسي باب المقصورة وبدأت عملية التحضير للحفلة التنكرية . صنعت لنفسي لحية من كتلة شعر كثيفة ، ورمحا ثلاثي الشعب وتاجا . كنت أنيقا في ذلك الزي . ومن دون أن أنظر في المرآة ، كنت نبتون النابض بالحياة .

عندما عبرت «ريج» حسب تقديراتي وحساباتي خط الاستواء ، صعدت الى ظهر السفينة في زي نبتون .

كانت النتيجة مذهلة جدا وقد شده رفيقاي بتلك المفاجأة . أمّا رد فعلهما ، فكان غير متوقع أبدا . عندما دلفت اليهما ، كان رفيقي الاول «لوم» يقف بجانب عجلة القيادة يحدق بالأفق ، في حين انهمك «فوكس» وحسب أوامر «لوم» بتلميع الأجزاء النحاسية من اليخت . ومازلت أرى السمك الطائر يمرق فوق الأمواج .

كل شيء كان ساكنا ، ولم يلاحظ أحد منهما وجودي .

ولجذب انتباهما رطمت الرمح الثلاثي بجدار اليخت وهدرت بصوتي . التفت اليّ كلاهما ، مذهولين .

تقدم «لوم» بعد أن أفاق من ذهوله وسأل بصوت

خجل :

– «هل أنت بخير أيها القبطان ؟» .

كنت مستعدا لهذا السؤال ، وتسلحت بقصيدة نظمت كلماتها بنفسي :

«أنا نبتون ، للمحيطات ملك ،

حاكما للبحار ، والرياح ، والسمك !

قدم بيانا عن غرضك ،

والى أين تبحر بسفينتك» ؟

عبر وجه «لوم» عن الذعر الذي مهد الطريق لقرار متهور ، فقد قفز فوقي كالنمر ، وثبت ذراعي الى الجانبين ثم ساقني نحو الحوض .

أمر «فوكس» من فوق كتفه : «احمل قدمي القبطان» .

قبض «فوكس» على قدمي . أوضح «لوم» بصوت أقل رعبا :

– «لقد أصابته ضربة شمس ، انه بحاجة لغطسة في الماء لتهدئة رأسه» .

عبثا كنت أنازع وأناقش وأقول بأن التقاليد القديمة تقضي بأن الذي يجب أن يغمس في الماء ليس أنا وانما

كلاهما معا كرمز لعبورهما الأول خط الاستواء ، ولكنهما لم يكونا ليسمعا ماحسباه ترهات ، وساقاني جبرا نحو الحوض وقاما بغمسي في الماء بدءا بالرأس .

أصبح تاجي مخضلا بالماء ، وسقط رمحي الثلاثي من يدي . لم يبق حالي على وقاره وأخيراً ألهمت بفكرة ، فاستجمعت آخر قواي واستفدت من فسحة بين غمرتين ثم أمرت بصوت رعدي :

– «كفاكما غمسا للقبطان !» .

نجحت .

صاح لوم : «أمرك ، أمرك ياسيدي !» .

توقفا وتركاني ، فسقطت في الحوض ، ولم تبق غير ساقي خارجه . كان من الممكن أن أغرق لو لم يقلب «فوكس» ، بحضور بديهته ، الحوض رأسا على عقب . (إنسكب منه الماء ، ولكنني علقت به كنت بداخله كسرطان ناسك في صدفته وأنا أحاول استعادة أنفاسي وعندما فعلت ، زحفت خارجا من الحوض .

بامكانك أن ترى كيف عانى مقامي وهيبتي من هذه الحادثة ، وفوق ذلك كله فقدنا الريح التجارية كان الهدوء التام يلف السكان وفترت همة الفريق من شدة

الكسل وفي كل صباح كان «لوم» و «فوكس» يربضان على ظهر القارب بطريقة تركية ويلعبان الورق حتى تئن مفاصلهما ألما .

راقبت هذه الحال مدة يومين ، ثم قررت أن أضع حدا لها . عموما ، أنا ضد كل أنواع المقامرة ، ولكن هنا وبهذا الجنون الجديد أجبرنا على كسر القاعدة . كما تعلم ان «فوكس» كان غشاشا في لعب الورق ، وبنتيجته أن خسر «لوم» كل لعبة يبدأ بها . ماالذي يجنيه «فوكس» من مهارته تلك ؟ ان منعت عنهما لعب الورق ، فانني لن أترك لهما شيئا ليفعلاه وسيموتا من السأم القاتل ، لذا اقترحت أن يلعبا الشطرنج . انها لعبة تحتاج الى المهارة ، كما أنها تشحذ الذكاء وتنمي التفكير ، بالاضافة الى أنها تميل الى الهدوء والى أجواء المنزل .

لذا أحضرنا طاولة ووضعنا عليها السماور . ثم بسطنا المظلة وجلسنا تحتها من الصباح وحتى المساء نرتشف الشاي وننهمك في معركة بيضاء .

في احدى الصباحات ، كنت مستغرقا مع «لوم» في اللعب ، فقرر «فوكس» أن يسبح قليلا . حصر (ملك) لوم في زاوية ، وكنت اوشك أن أهزمه في حركتين ،

وفجأة قطع الصمت المخيم علينا صرخة قادمة من البحر . نظرت ، فرأيت قبعة «فوكس» تطفو فوق سطح الماء ، لقد كان يستحم بقبعته لتقيه من ضربة الشمس . أبصرت «فوكس» يتقدم سابحا بأقصى سرعة وترتفع من حوله غيمة من الرذاذ . ومن خلفه رأيت زعنفة سمك القرش تشق طريقها بهدوء على سطح المياه الرائقة .

في غضون ثوان لحقت سمكة القرش برفيقنا البائس وفتحت فكيها المخيفين . أدركت في تلك اللحظة وجوب القيام بشيء في الحال وإلاّ سينتهي أمر زميلنا المسكين . ومن دون أن أنظر ، اختطفت شيئا من المائدة ورميته في خطم* القرش .

كانت النتيجة مشرقة ، فقد أطبق الحوت فكيه على ذلك الشيء ، وفي اللحظة التالية تخلى الوحش عن ملاحقته لـ «فوكس» وبدأ يدور ، عيناه جاحظتان وفكّاه منطبقان .

في تلك الأثناء ، وصل صاحبنا الى القارب بسلام ، فتسلقه وألقى بنفسه على الكرسي منهكا تعبا . أراد التحدث ، ولكن صوته كان خفيضا أجش ،

* خطم : فكان ناتئان للحيوان.

وبلعومه جافا من شدة الخوف . وبسرعة أحضرت له قدحا من الشاي .

سألته وأنا أمد يدي الى وعاء الليمون : «هل تريد بعض شرائح الليمون ؟»

ولكنني اكتشفت بانه فارغ .

عندئذ فقط انقشعت الأغطية عن حيرتي ، وأدركت بأنني في تلك اللحظة الخطرة أمسكت بليمونة وألقيت بها الى الحوت ، فكان أن أنقذت حياة «فوكس» . الحيتان بالطبع ليست معتادة على طعم الليمون الحامض . وليست الحيتان فقط ، حاول أنت مثلا أن تمضغ ليمونة كاملة ، سترى أن فكيك يقفلان أيضا .

تلك الحادثة جعلتنا نتوقف عن الاستحمام في البحر . اننا نملك كثيرا من الليمون ، ولكننا لا نأمل أن نصيب الهدف كل مرة ، لذا صنعنا دشا على ظهر المركب ، وفي الأحيان يحمم أحدنا الآخر بوساطة الدلاء . ومع كل مافعلناه ، الآ أن الحرارة كانت تقود بنا الى الجنون .

وفي صباح جميل ، ارتفع نسيم عليل . أسرعنا الى مراكزنا بعد أن سامنا الكسل وفي غضون ثوان نشرنا

أشرعتنا وأكملت «ريج» طريقها نحو الجنوب .

قد تجد اختياري للاتجاه الجنوبي غريبا بعض الشيء ، ولكن بنظرة الى شكل الكرة الأرضية يتوضح لك أن الابحار قرب خط الاستواء عمل طويل شاق ممل ، ويتطلب عدة أشهر . أمّا قرب القطب ، فبا مكانك السير حول محور الأرض خمس مرات في اليوم ان أردت ، وقد يطول النهار في المنطقة القطبية ستة أشهر .

كان القطب الجنوبي وجهتنا . عبرنا المناطق المعتدلة وكنا نقترب من دائرة القطب الجنوبي بدأت برودة الجو تتزايد والبحر يختلف عما اعتدناه : فالماء رمادي اللون ، الضباب كثيف والغيوم تحوم حولنا منخفضة . كان علينا أن نرتدي الفراء ، فقد أصاب آذاننا الخدر ، وتدلت الدلاة الجليدية* من أجهزتنا وآلاتنا وحتى من حبال الأشرعة والصاري .

ولكننا مع كل هذه البوادر ، لم نضع التراجع في حساباتنا . وعلى العكس ، فقد استفدنا من الريح المؤاتية للوصول الى مناطق أكثر انخفاضا . كنت متلهفا لرؤية الحدود الجليدية لشواطئ القطب الجنوبي .

* الدلاة الجليدية :كتلة جليدية مدلاة ناشئة عن تجمد الماء اثناء تقطره .

وأخيرا سمعت صرخة «فوكس» الذي كانت له عينا نسر :
– الأرض أمامنا ! »
ركزت أنظاري جيدا ، فلم أر شيئا وتساءلت ان كان فوكس يرى الأشياء كما نراها وقبل مرور نصف ساعة ، رأيت حدا أسود في الأفق ، يبدو أنها أرض .
قلت وأنا ألتقط التلسكوب : «رائع أيها الصديق «فوكس» .
ولكن نظرة خلال التلسكوب أعلمتني أن «فوكس» مخطئ . انها لم تكن أرضا يابسة ، ولكن جبلا جليديا عائما يشبه المنضدة في شكله .
وجهت اليخت اليه ، وبعد مضي ساعتين ارتفع أمامنا متألقا متلألئا تحت شعاع شمس لا تغيب أبدا .
ارتفعت الحيود* الزرقاء فوق البحر كجدران قلعة كرستالية . بدا جبل الجليد هادئا باردا ، تتشبث بقمته غيوم ريشية خفيفة ، وترتطم بجوانبه أمواج خضراء .
في نفسي شيئ من فنان ، والطبيعة المهيبة تحرك مشاعري بعمق دائما . وحين رأيت المشهد ، تعانق ذراعاي فوق صدري ووقفت على ظهر المركب هائما في

* الحيود : جمع حيد وهو مانتأ من الجبل .

خيالي .
وفجأة دفع فظ* أعجف ، مهزول وجهه المضحك خارج الماء . تسلق المنحدر الجليدي وبدأ يحك جلده .
صحت به : «شو– و– و !» لم يعرني أي اهتمام واستمر يحك ويشخر مجسماً الصورة المهيبة .
لم أحتمل اهانته ولا أباليته ، فصدر عني خطأ شنيع فاضح شكل تقريبا نهاية مخزية لرحلتنا الكلية .
قلت لفوكس : «احضر لي بندقية» .
غاص «فوكس» داخل المقصورة وأحضر منها بندقية . أخذتها وهدفت على الفظ الوقح و .... أطلقت !!!!
وفجأة ترنح الجبل الذي كان يبدو قويا صلبا متماسكا كجبل «ايفرست» . وبصوت مدو انقسم الى قسمين . هاج البحر من تحتنا وتساقطت قطع جليدية صغيرة فوق سطح سفينتنا ، ثم .... انقلب الجبل الجليدي على عقبيه حاملا السفينة معه و– عجبا ! أنظر ! لقد اعتلينا قمته .
عندما استقر كل شيئ ، ألقيت نظرة فيما حولي . لقد

* الفظ : حيوان ثديي بحري شبيه بالفقمة .

حشر اليخت تماما بين شقوق الجليد ، والمحيط الرمادي يحيط بنا من كل الجهات . فوق ذلك كله ، وقع بصري على الفظ نفسه في أسفل الجبل مستلقيا على ظهره ، مكشرا لنا بحقد وسخط .

قهر رفيقاي وهزما بانقلاب الأحداث . نظرا اليّ بتساؤل في انتظار تفسير لتلك الظاهرة المذهلة . حسنا ، كان في جعبتي رأسمال لا بأس به من المعلومات عن جبال الثلج ، فشاركتهم اياها في الحال .

شرحت مامفهومه أن جبل الجليد يعد جارا خائناً للسفن وخاصة في الصيف حيث يكون جزؤه الغاطس في الماء ذائبا ، وأن أي هزة حري بها أن تسبب ازاحته عن مركز ثقله . وقد يكون السعال كافيا لتحريكه أو شطره وليس صوت اطلاق النار . كما أنه عرضة للانقلاب بأقل اثارة أو تحريض .....

استمع اليّ رفيقاي بانتباه مفرط ، حتى أن «فوكس» الرفيق الحساس لم يعلق على أقوالي ، ولكن «لوم» الرفيق المتبلد بذهنه سألني سؤالا مربكا جدا حين قال :

— «كل شيئ ممكن فيما يخص انقلابه أيها القبطان ، فذلك شيئ مفروغ منه ، ولكن السؤال الآن هو كيف نستطيع

اعادته الى وضعه الطبيعي ؟» .

صحيح ، كيف لنا اعادة ذلك الجبل الى وضعه الطبيعي الأول ؟ من المؤكد أن بقاءنا معلقين فوق هكذا حتى يوم القيامة شيئ مستحيل !

بدأت أفكر في السؤال وأتأمله مليا في حين انصرف «لوم» في محاولة العثور على طريقة بنفسه . وبلا تفكير منه ، التقط فأسا وضرب بها على قطعة خشبيه غليظه تزن حوالي مئتي طن .

ربما تخيل بانه بهذه الطريقة سيتمكن من كسر الجبل العظيم بأكمله واعادة اليخت ثانية الى مستوى الماء . كانت محاولة جيدة ، الاّ ان نتيجتها كانت عكسيه تماما وكل ماتلا ذلك سببه الافتقار الى المعرفة .

أصبح الجبل الجليدي بعد تحرره من جزء من وزنه ، أكثر خفة ، فاكتسب طفوية* اضافية . وبهذا ارتفع أكثر . في تلك الأثناء وصلت في تفكيري الى قرار . كانت قمة الجبل الثلجي بضمنها اليخت ، وبجهود لوم ، مرتفعة عن مستوى سطح البحر اربعين قدما .

خطتي كانت بسيطة جداً ، فقد وضعنا ملاءات

* طفوية : قابلية الطفو في الماء .

جديدة لأشرعتنا وصوبنا وجهتنا نحو الشمال ، نحن والجبل الثلجي نحو المناطق الاستوائية . لقد قرر (الفظ) الوقح ان يلازم صحبتنا .

وقبل انقضاء أسبوع بدأ جبلنا الجليدي بالتقلص ، ثم تفطر وتشقق . وأخيرا تكسرت أجزاؤه الى قطع صغيرة وانزلقت «ريج» الى سطح الماء أدرك الحيوان أن موطأه سيغرق ، فألقى بنفسه على ظهر المركب . وبارتياح خبيث ، قبضت عليه من مؤخرة عنقه ووجهت له ضربة نابعة من قلبي وألقيت به الى الماء . هذا ما يستحقه . سيتعلم ألاّ يغضب رجل البحار مرة أخرى .

في تلك الأثناء أدار «لوم» دفة السفينة وعدنا ثانية نحو الجنوب .

الفصل العاشر

حيث يتعرف القراء الى الادميرال «كوساكي» ومن ثم يهدد طاقم الريج بالموت جوعا

ومرة أخرى عدنا الى الضباب الى الغمائم الرمادية والبحر المتجمد ونعود لنرتدي الفراء.

وفي أحد الأيام الصقيعية عندما كنا نواصل رحلتنا، سمعنا فجأة دويا صم آذاننا.لم يكن انفجارا تماما ولاصاعقة كذلك، اننا لم نستطع تعيين مكنونها.

أصغينا: كان الصمت شاملا، ثم .... دوي آخر وصمت آخر.

حددت المكان وانحرفت باليخت نحو الظاهرة المحيرة. وبعد قليل أبصرنا مايشبه تلاّ طافيا في الأفق. عندما اقتربنا منه، أدركنا أنه ليس بتل، وانما غيمة من ضباب كثيف. وعلى حين غرة، ارتفع من مركزه عمود من الماء، وهزت لعلعة مكتومة سفينتنا من عاليها الى سافلها.

كانت هزة مروعة ولكن الفضول والرغبة في اغناء العلم بوجود حل لظاهرة محيرة كهذه غلبت الحذر، فتقدمنا تدريجيا داخل الضباب. وبتقدمنا، لاحظت أن الدلاة الجليدية تتساقط من أجهزتنا ومعداتنا وأن زئبق المحرار في ارتفاع. غمست يدي في الماء من فوق جانب المركب فوجدته حارا بعض الشيئ ثم رأيت هيكلا غامضا قبالتنا، شيئا كصدر ضخم. وفجأة ارتفع الصدر وتنهد ثم أطلق عطاسا حادا «آ-آ-آ-شوو!» فهمت آنذاك أنه حوت العنبر(*) يتخبط داخل هذه الأجزاء الباردة من المحيط الهادي وقد أثّر عليه البرد فأُصيب بالزكام وارتفعت درجة حرارته. وهذا هو سبب ارتفاع حرارة الماء.

* العنبر: حوت عظيم ذو اسنان.

كان من الممكن أن نستفيد من هذه الفرصة ويحربن(**) الحوت ولكن من العار علينا أن نأخذ من مرض حيوان وسيلة لصيده كما أنني لم أُضع ذلك ضمن مبادئي. لذا قمت بوضع جرعة مناسبة من الأسبرين على مجرفة ووجهتها نحو فم الحوت مباشرة. الاّ أن الريح ارتفعت في تلك اللحظة وحركت احدى المويجات قاربنا، وبدلا من دخول الأسبرين فم الحوت، سقط داخل منخريه.

أخذ الحوت نفسا عميقا فأخذه الخدر لحظة، ثم أغلق عينيه وأطلق عطسة هائلة، وكانت في وجه السفينة مباشرة! ارتفعت هذه الى السماء ثم بدأ بالهبوط لولبيا وارتطم بشيئ صلب. أفقدتني الصدمة وعيي وعندما أفقت، وجدت اليخت مستلقيا على جانبه فوق باخرة حربية ضخمة. كان (فوكس) متدليا في الهواء بعد أن شبك بالمعدات، أمّا «لوم»، فقد جثم على مقربة مني بعد أن أصابته الضربة بدوار.

ومن النهاية القصوى للباخرة تقدم نحونا وفد في مشية عسكرية والجميع في زي موظفي بحرية ذوي مراتب عليا.

** يحربن: يطعن بواسطة الحربون وهو رمح لصيد الحيتان.

قدمت نفسي وكذلك فعلوا. فهمت أنهم ممثلو لجنة عالمية لمنع انقراض الحيتان. شرعوا في استجوابي عن بداياتي ومكان رحلتنا المقصود والغرض من الرحلة وغير ذلك — سألوني فيما اذا كنت قد رأيت حيتانا، وان حدث ذلك، فما الذي اتخذته من اجراءات لمنعها من الموت.

أوضحت لهم بأننا في رحلة رياضية استطلاعية عالمية، وبأننا قد التقينا بحوت العنبر المريض وقدمت له العلاج الطبي الذي يوصف لمثل حالته.

أنصتوا اليّ وتهامسوا فيما بينهم ثم مالوا الى التباحث. ونحن كذلك جلسنا للتباحث. قال لوم: «سيقدمون لنا إطراءهم وربما ميدالية أيضا.»

رفض فوكس القول: «وماذا نفعل بميدالية، انني أُفضل اعانة مالية.»

أما أنا فقد احتفظت برأيي مدركا أن الأفضل دائما هو التهيؤ للأسوأ.

مضت ساعة ثم أُخرى وثالثة. شعرنا بالضجر والسخط فقررت أن أستطلع الوضع. بعد أن سمحوا لي بالدخول جلست في زاوية وانصتّ لجدلهم. في تلك

اللحظة، كان ممثل السلطة الشرقية في منتصف حديثه:

-«هدفنا الاعتيادي هو منع موت الحيتان. فكيف لنا الوصول الى هذا الهدف النبيل؟ انني أسألكم. في رأيي ان الطريقة الأكثر تأثيرا هي الابادة. فعندما يفنون جميعا لن يبقى أحد ليموت! والآن لنختبر الحالة التي بين أيدينا. وكما صرح القبطان رنجل بنفسه، فقد كانت بين يديه فرصة ذهبية للقضاء على الحوت، ولكن ماالذي فعله هذا الرجل بديلا؟ لقد تملص من واجبه النبيل، فهل سنتجاهل فعلته هذه؟ كلا أيها الرجال لانستطيع، يجب أن نعاقب المجرم. وأقترح أن يؤخذ قاربه بعيدا عنه ويعطى للرفاق الذين لم يحجموا عن أداء مهمات هذه اللجنة».

ثم قال ممثل لسلطة أُخرى من الغرب نسيت اسمه، شي يشبه اسم«غرا بنفروكت» وبلهجة الأمر:

-«انني أوافق السيد«كوساكي» من أن القبطان«رنجل» يستحق العقاب، ولكن يجب أن أُشير هنا الى أن الأدميرال الموقر قد تطرق لأكثر وجوه الأمر أهمية:

فالعنبر، وباعتباره نوع مميز عن الحيتان الأُخرى، له جمجمة طويلة وهو نوع نموذجي من السلالة الآرية(هندية، اوربية). لقد أهان القبطان«رنجل»

السلالة الآرية بأسرها حين أهان حوت العنبر. فهل تعتقد بأننا–نحن الآريين– سنحتمل الأمر؟»

الى هذا الحد سمعت كثيرا مما يثبت لي بأننا قد وقعنا في ورطة فتسسللت كالثعبان خارجا من غرفة المؤتمر وأخبرت رفيقيّ باتجاه سير الرياح في الداخل. أخمد ذلك الخبر معنوياتهما بوضوح. ولم يكن أمامنا غير انتظار قرار محبي الحيتان.

استمر المؤتمر اليوم بأكمله. وباقتراب الماء خرجوا بقرارهم. كنا قد هيأنا انفسنا لاستقبال الأسوأ حيث ودعنا«ريج» في قلوبنا. ولكن مصيرنا لم يكن بالسيئ الذي توقعناه. فقد كانت النتيجة كحل مؤقت مضمونها: عقد لجنة لدراسة الموضوع، وأن يترك في غضون ذلك اليخت مع طاقمه في احدى الجزر الصحراوية القريبة.

من الطبيعي أن أحتج على ماسيؤول اليه مصيرنا ، ولكن محاولاتي باءت بالفشل . وتم رفع «ريج» بوساطة رافعة ، وأُنزلت فوق الصخور . ثم نقلنا الى ساحل الجزيرة نفسها . وقام البعض برفع راياتهم الكثيرة ، ثم ودعونا مستهزئين وعادوا أدراجهم .

لم يكن بيدنا حيلة غير الاستسلام الى القوة الوحشية

البهيمية ، وسكنا الجزيرة بكل مايسعنا من هدوء ، ولكن مايسعنا من هدوء لم يكن جيدا . لقد كان اليخت معلقا على حافة منحدر صخري شاهق ، وصارية يبرز فوق البحر بشكل أفقي تماما ، ورأيت الأمواج الغائمة تتكسر أسفل المنحدر .

قررنا البدء بجولة حول موطننا الجديد .

كانت جزيرة صغيرة فقيرة ، ولاشيئ فيها غير الصخور الصماء العارية . كما أن الجو كان باردا فيها . ولكن كان بوسعنا التكيف ضد هذا الشر الأخير ، البرد ، فلم يكن هناك عجز في خشب الوقود اذ كان في الجزيرة أكوام من حطام السفن التي قذفها البحر الى الشاطئ .

ولكن . . . أيمكن للانسان العيش على الوقود وحده ؟ لقد نفدت مؤننا جميعا . ولم نبصر في الجزيرة حيوانا أو نباتا من أي نوع ، ولا يمكننا أن نطهو الصخور كذلك .

يقولون أن الشهية تأتي مع الأكل . ربما هذه الحال مع بعض الناس ، ولكنني نوع استثنائي ، فأنا أشتهي الطعام حين لم أذقه زمنا طويلا . بتصميم مني على محاربة شذوذي هذا ، ربطت حزامي بقوة أكبر وحاولت ألاّ

أفكر بالطعام .

وكذلك تصرف رفيقاي برزانة أيضا . كرسنا جهودنا على الاصطياد ، ولكن تعبنا ذهب سدى . وفي أحد الأيام تذكر «لوم» بأن الملاحين في الأزمان الغابرة كانوا يطبخون نعال أحذيتهم في الحالات الحرجة ، لذا قام بوضع حذائه في المقلاة وتركها على النار مدة يومين ، ولكن ما من فائدة ترجى . ولاعجب ، فقد كان أجدادنا سابقا يصنعون أحذيتهم من جلود العجول أو الثيران ، في حين أحذيتنا هذه مصنوعة من الجلد الصناعي الكاذب .

بوزننا المتضائل ، بدأنا نحوم حول اليخت ، نحدق في الأفق ونرمق بعضنا البعض بنظرات جائعة . كان شبح الموت جوعا يلوح كبيرا مجسما أمامنا . أمّا في الليل ، فتعذبنا الكوابيس .

وفي أحد الأيام ، تقدم طوف* جليدي نحونا وعليه عدد ضخم من البطاريق . أحنوا قاماتهم الينا تحية ، فرددنا التحية بهزة من رؤوسنا ونحن نسائل أنفسنا عن طريقة للتعرف اليها عن كثب . كان الساحل منحدرا أملس ولن نستطيع النزول عليه ، ومن جهة اخرى

* طوف جليدي : رقاقة كبيرة من جليد عائم .

لايمكن للبطاريق الطيران الينا ، فاجنحتها ليست أكثر من حلية كما تعلم . ولكن من جهة ثالثة وهي الأهم ان طيور البطريق كانت سمينة شهية ، وليس ممكنا تركها تفلت من بين أيدينا .

وقفنا هناك ، فوق المنحدر الصخري ، ننظر اليها بشوق . وشيئا فشيئا اقترب الطوف الجليدي حتى مس الساحل واستقر تحت صاري يختنا تماما . بدأت البطاريق تصيح وتحرك أجنحتها وتنظر الينا بتطلع وشوق أكثر من شوقنا .

بدأت فكرة تتكون في رأسي . فوضعت حساباتي الضرورية وقررت أن أبني مصعدا للبطاريق .

أخذنا برميلا فارغا ، وثبتنا عجلة القيادة الاحتياطية في احدى نهايتيه ، ثم فتحنا فجوة في قعره وأدخلناه في الصاري . ومن فوقه ربطنا سلم العواصف لنحصل على حزام متكامل طويل . جربت الأداة ، فأدت واجبها حسب ماقدرت لها . والشيء الوحيد الذي كان يعوزنا هو الطُعم . فما هو الشيء الذي يجذب انتباه البطاريق ؟ .

استعملت حذاءا ، وما من استجابة . انزلنا مرآة ، وكانت النتيجة كسابقتها . ثم حاولنا اخفاض وشاح ،



وبلا فائدة ايضا .

ثم باغتتني فكرة حقيقية رائعة . انني أضع في مقصورتي صورة على حائطها ، انه منظر حيّ لشبوط * مسلوق والسلطة فيما حوله . لقد كانت تلك الصورة هدية من صديق فنان لي . بدا شكل السمكة حيا وكأنها ستقفز الى الماء .

أنزلت الصورة . . . . فنظرت البطاريق باستمتاع بالغ حتى أن أحدها بدأ يرتقي السلم الحبلي كي يراها أفضل ويصل اليها . في تلك الاثناء ، لففت البرميل لفة ، فاقتنصت بطريقا .

مضيت بعملي هذا بكل دقة وسرعة حيث جلست على الصاري أبرم البرميل بيد وألتقط البطاريق باليد الأخرى ، ثم أسلمها الى فوكس ، وهذا يمررها بدوره الى «لوم» الذي يعدها ويسجلها ومن ثم يطلقها حرة في الجزيرة . في غضون ثلاث ساعات ، استقبلت الجزيرة سكانها الجدد من البطاريق .

بعد أن أنهينا عملية انقاذ البطاريق ، بدت حالنا أكثر اشراقا . فهذه هي البطاريق تتجول هنا وهناك

* الشبوط : سمك نهري كثير الحسك .

وترفع أصواتها سعيدة ، وهذا «لوم» بمئزر العمل يقوم بطبخ أول وجبة طعام لنا منذ عدة أيام .

شوى لنا «لوم» البطريق الأول على نار مضرمة ، التهمناه قرب النار وقبل أن نجلس . وحين سكنت الآم بطوننا اللاذعة ، انطلقنا ننقل خشب الوقود لتجهيز المطبخ .

اشعل «لوم» نارا هائلة ، وكانت نارا يضرب بها المثل ، فقد ارتفع الدخان بشكل عمود طويل وكأنه منبعث من بركان . أصبحت الصخور حارة جدا وكأنها ستتقد ، وذابت القمة الجليدية الصغيرة في أعلى الجزيرة وشكلت بحيرة تغلي . فكرت بأننا قد نتمكن من الاستحمام فيها وغسل ملابسنا أيضا . وفعلا نظفنا حاجاتنا وعلقناها في الهواء الطلق لتجف . أما رفيقاي ، فقد مضيا في الاستمتاع بحمام رائع . وهنا كنت مخطئا لأن السوفيتيين مولعون بالحمامات الحارة ، وكان يجب أن أتذكر بأن الجو في القطب الجنوبي متقلب تماما .

بعد قليل تجلى الخطأ أمامنا واضحا في أقل من نصف ساعة . فبوجود الصخور الحارة جدا ، فلن يسعك الخطو عليها ، والهواء الحار يتصاعد في الجو بلعلعة وكأنه خارج

من مدخنة ضخمة . لقد أخللنا بتوازن كتل الهواء في الجو ، فأسرعت تيارات الهواء البارد الينا . وتجمعت الغيوم من فوقنا ، ثم بدأت بنث غضبها فوق رؤوسنا .

وأخيرا كان هناك تحطم صمت له الآذان .

الفصل الحادي عشر

حيث انفصل القبطان عن قاربه ورفيقه الاول

لم أستعد وعيي في الحال، وبقيت مشوش النظر والسمع عندما استعدته، واكتشفت بأن نصفاً من الجزيرة قد اختفى وعليه اليخت. كان البخار يلتف حولي كدوامة والرياح تجاوزت كل حد في انطلاقها، ثم رأيت أسماك البحر مسلوقة، تطفو وبطونها للأعلى في هذا البحر الهائج.

لم تحتمل تلك الصخور الحارة البرودة المفاجئة، فانفلقت نصفين. وربما هلك المسكين «لوم» في الكارثة، كذلك «ريج»، فوداعاً لأحلامنا. أمّا «فوكس»، فكان يلف البحر متشبثاً بلوح خشبي.

ولِمَ لا، انها ليست بالفكرة السيئة، أن أطوف فوق لوح خشبي أيضاً، أن أستلقي عليه وأنتظر التطورات. وبعد قليل هدأ البحر وخمدت الرياح، فقمت مع «فوكس» بالتقاط ما استطاع لوحانا الخشبيان استيعابه من السمك المسلوق، وسلّمنا أنفسنا لرحمة الظروف. قرفصنا فوق اللوحين وسرنا متوازيين باتجاه مجهول، نتبادل بعض العبارات من حين الى حين: «كيف الحال يافوكس؟» «جيدة أيها القبطان! كل شيء تحت سيطرتنا!».

تحت سيطرتنا! لقد كانت رحلة سيئة، نشعر بالبرد والبلل واللهفة ايضاً. ولسنا نعلم هل سنصل ارضاً يابسة أم لا. لم نقم بمناورات تذكر، فقد كان الخوف يمنعنا حتى من التجذيف لئلا نلفت أنظار الحيتان الينا، فنفقد ذراعاً أو قدماً قبل أن نراه.

لذا قضينا الوقت في تكاسل وملل. مرَّ يوم وآخر،

ولكنني فقدت حساب الأيام والليالي بعد مدة. فلم يكن معنا تقويم، وكل ماكنا نستطيعه هو التأكد من تخميناتنا مع بعضنا البعض.

وفي احدى الليالي، وعندما كان «فوكس» نائماً على لوحه، وكنت أنا أعاني من الأرق، قررت أن أُحاول وآخذ على عاتقي النتائج فمن غير أدواتي ومعداتي لا أتوقع أن تكون حساباتي دقيقة، ولكنني نجحت في التأكد من أننا في تلك الليلة عبرنا (خط التقويم العالمي). وأنت تعلم أيها الشاب من أن هذا الخط لايرى الّا على الخرائط، وليس له وجود على البحر. ولكن الناس، بعبورهم هذا الخط فعلياً، على البحر، يقومون بعملية معينه بالتقويم. فان كانوا مبحرين من الغرب نحو الشرق، فانهم يعطون التاريخ نفسه ليومين متعاقبين. وان كانوا مبحرين من الشرق الى الغرب، فانهم يحذفون يوماً واحداً لأن اليوم الذي يتلو الغد يتبع ذلك اليوم مباشرة.

بعد تحية الصباح المعتادة لليوم التالي، أخبرت «فوكس»:

-«يجب أن تعلم يافوكس بأنّ اليوم هو غداً.

حدق بي بغباء وقال بعناد:

–«كلا، ليس صحيحاً. انني قدير بحساباتي ياسيدي.»

قلت له «الرياضيات لا عليها بذلك يافوكس، فالملاحون يأخذون معلوماتهم من علم الفلك فبينما غرقت في سباتك طول الليل خرجت أنا بحكم بمساعدة الأسماك.»

صاح فوكس: «انني أُصدر أُحكامي بوساطة الأسماك أيضا! فبالأمس بقيت لدي ثلاث سمكات واليوم بقي واحدة ونصف لقد اقتصدت بتناولي سمكة ونصف في اليوم لذا لايمكن أن يكون اليوم هو غدا.»

أُدركت بأنه ليس معي. فأنا أُعني الأسماك ككواكب في حين يتحدث «فوكس» عن وجبته الغذائية حاولت أن أُشرح له:

– والآن يافوكس. انتبه اليّ ماالذي فوق رأسك؟»

– قبعتي!»

صحت به: «هراء! قبعة! يوجد السمت* في قمة رأسك!»

– «مجلس الشيوخ**؟ ربما، فالله قادر!»

* السمت: هامة الرأس وتلفظ zenith بالانكليزية

** مجلس الشيوخ: بالانكليزية senate ولفظها يشابه لفظة zenith فالتبس الامر على فوكس ولم يفهم القصد. (المترجمة)

صرخت بنفاد صبر: «اللعنة، اترك ذلك. وماذا يوجد تحتك؟»

– «ماذا تعتقد؟ لوح خشبي!»

– «كلا، يوجد الحضيض***.»

– «لايمكنني الطفو على فكرة. انه لوح خشبي ملموس.»

لم أُفلح في التسلل الى رأسه، فجربت محاولة أُخيرة:

– « كم هو طولك حسب ظنك؟»

ومن دون أن يتريث ليفكر قام بقياس اللوح الذي يجلس عليه بأُصابعه ثم صاح:

– «حوالي خمسة أقدام!»

ماذا أفعل ببليد كهذا؟ ولكنني أُدركت بأن هذا ليس الوقت المناسب لزجه في الأُمور البحرية الفلكية، فقررت أن أُتوقف عن حساب الأيام. وان وصلنا الى بلد متحضر، سيخبروننا به. ومن ناحية أُخرى، فانك في خضم البحر الواسع لايهم ان التهمك الحوت بالأُمس أُو اليوم أُو غدا.

مضينا في طفونا عدة أيام أُخر وفي احدى الصباحات لاح لي شريط قاتم لأُرض يابسة في الأُفق. وتساءلت

*** الحضيض: نظير السمت العاكس = الدرك الاسفل.

هل هي الجزر المشطورة أم لا.

اقتربت منها عند المساء، وكنت محقا. انها جزر «هاواي».

لقد كنا محظوظين فجزر «هاواي» مكان مقدس. طبعا كان لتلك الجزر عيوبها في الماضي وكان الناس عرضة لأن يؤكلوا هناك وبما أن سكانها الأصليين قد انقرضوا منذ زمن طويل فلم يبق للحيتان ماتأكله، كما لم يبق أحد ليأكل الحيتان. لذا فكل شيئ جميل وهادئ. ومن نواح أخرى فان الجزر عبارة عن جنة على الأرض. الخضرة تغطي الأرض بشكل لايوصف، تغطيها بالأناناس والموز وأشجار النخيل ولكن الأعظم فتنة وجاذبية هو ساحل «وايكيكي» في «هونولولو» فالناس يأتون اليه من كل مكان ومن كل أرجاء العالم ليسبحوا فيه وليركبوا أمواجه (المركمجة) أي ركوب الامواج على لوح خشبي هي رياضة تقليدية هنا، وقد ابتدعها «كاناكاس».

مشهد بهيج رائع لو فكرت فيه في ركوب موجة واعتلائها. كنا نحن الاثنين نتمسك بلوحين خشبيين كقطتين صغيرتين عمياوين. وفجأة غمرني احساس بالعار. لماذا لا أحاول الوقوف على لوحي الخشبي؟

وبهدوء رفعت نفسي انتصبت ومددت ذراعي ثم احتفظت بتوازني وبقيت واقفا هكذا!

نهض فوكس أيضا ثم وقف ممسكا بقبعته وهو يترنح. ولكن مع ذلك ظل محتفظا بتوازنه فحملتنا الموجة عاليا كنصفي اله البحر.

عندما أصبح الساحل قريبا جدا، تكسرت الموجة وانزلقنا فوق الرمال وكأننا فوق مزلقة.

الفصل الثاني عشر

حيث يقدم القبطان مع فوكس حفلة موسيقية صغيرة ثم يسرعان الى البرازيل

على الساحل.. أحاط بنا حشد من الناس بملابس السباحة، يصفقون ويلتقطون الصور. بدا كل منا قذرا كقمامة! وشعرت بالارتباك الشديد من دون بزتي، ففكرت أن أُلغي اسمي ومنزلتي وأن أتخفى تحت اسم مستعار.

لذا وضعت اصبعي على فمي لافهم «فوكس» بأن لايتفوه ببنت شفة، الاّ أن المتفرجين تصوروا بأنني أنقل اليهما قبلة، فتسبب ذلك في انفجار جديد بالبهجة على الشاطئ. صاحوا كالمجانين «يعيش!»، في حين لم أفهم أنا شيئا، ومع ذلك لم أفعل شيئا في انتظار التطورات.

في تلك الأثناء، تقدم شاب يرتدي معطفا وبدأ يشرح للجمع بأن مفهومنا خاطئ ذلك الذي يقول أن جميع سكان الجزر المنشطرة قد فنوا منذ بداية الحضارة هنا. ان حكومة ساحل «وايكيكي» وجدت شخصين من سكان «هاواي» الأصليين برهنا على براعتهما في الرياضة الوطنية التقليدية.

احتفظنا بصمتنا.

توقف الشاب قليلا، ثم بلع ريقه واسترسل في محاضرته.

– «ان سكان الجزر المنشطرة من الهاوايين أو الكاناكاسيين قد تميزوا ببنيتهم الرشيقة، والمزاج الهادئ والموهبة الربّانية في حبهم للموسيقى...»

انتبهت الى الوصف الذي تلاه، فأدركت انه لايناسبني كثيرا، نعم، أنا هادئ ولكنني لست رشيقا، أمّا

عن الموهبة الموسيقية.. في تلك اللحظة أكمل الشاب كلامه:

– «أللّيلة، سيقدم هذان الكاناكاسيان حفلة موسيقية صغيرة، يؤديان فيها عزفا من هاواي. تباع التذاكر في مكتب الحجز. الأسعار معقولة جدا. وسيقدم الشراب أثناء العرض...»

استمر بحديثه بعض الوقت، ثم انتحى بنا جانبا وسأل:

– «مارأيكما بذلك كبداية؟»

أجبته: «لابأس به، شكرا لك».

قال: «رائع! وأين ستقيمان؟»

– «حتى هذه اللحظة مسكننا في المحيط الهادي، ولاأقول أنه أعجبني كثيرا، أمّا عن الليلة فلا أدري شيئا».

قال: «هذا غريب. (المحيط الهادئ) فندق ممتاز، ولن تجد أفضل منه، اؤكد لك. ولكن يجب أن نذهب الآن، فستبدأ الحفلة بعد نصف ساعة».

حشرنا في سيارة وأوصلنا الى مكان ما. وهناك أعطونا غيتارين، وزينونا بالزهور ثم قادونا الى المنصة ورفعوا الستار...

رأيت بأنهم يتوقعون منا الغناء، ولكن ماذا نغني؟ وفي خضم تلعثمي وارتباكي نسيت كل الأُغاني التي أعرفها. وحتى «فوكس» ذلك الملهم، بدا تائها. حدق بي ثم همس:

– «ابدأ أيها القائد وسأساعدك...»

جلسنا على كرسيينا بصمت دقائق معدودة، ثم بدأ الجمهور يتململ بعصبية ونفاد صبر، فاما أن نغني أو نُرجم بالبيض الفاسد. أُغلقت عينيّ بقوة، وداعبت الأُوتار، فانطلقت حنجرتي بـ:

في الحقل راح الطير يثب...

ولكن.. لم استطع التفكير بالبيت التالي، ثم سمعت «فوكس» يكمل مابدأته:

بقرة تنسل الى الحقل وتثب...

بعد ذلك مضينا في الغناء سوية:

أطبقت فكيها،

فصرخ الطير الصغير بحدة،

ولم تسمع بعد أغانيه.

أتصدق ان قلت بأنهم صفقوا لنا كالمجانين!

ثم صعد المقدم الى المنصة وقال:

– «كانت أُغنية قديمة من هاواي وهي تحيي طريقة منسية في اقتناص الطيور والبناء الغنائي يعود لموسيقى هاواي الأُصلية...»

غنينا مرة أُخرى، ثم تركنا المنصة بانحناءة بسيطة وذهبنا الى المكتب لتسلم أُموالنا. وعدنا الى الشاطئ، فليس لنا مكان نلجأ اليه. لقد أُصبح البحر كالبيت بالنسبة لنا، اضافة الى أُن مظهرنا يلائم الشاطئ.

وبينما كنا نتسكع على طول الساحل الفارغ، لمحنا شخصين في وضع قانط، كئيب. اقتربنا منهما وتحدثنا، فقالا بشكوى:

– «لقد وقعنا اتفاقية لتمثيل سكان هاواي الأُصليين، وقضينا شهرا كاملا لنتعلم التزلج على الأُمواج، وهيأنا برنامجا للأغاني. ولكن يبدو أنهم نسوا كل مايتعلق بنا».

هذا هو ماحدث! كنت أُوشك أُن أدخل في شرح للحكاية، ولكن نتفة من جريدة انزلقت تحت قدمي مباشرة. لقد مضى وقت طويل منذ أُن امسكت بصحيفة آخر مرة. لذا التقطت القصاصة وبدأت أُقرأ فيها. هل تخمن ماذا رأيت؟

لقد كان أُول شيء وقع عليه بصري هو صورة لرفيقي

الأول «لوم» واليخت. يبدو أنه تحطم قرب الشاطئ البرازيلي، وكانت هناك بعض الكلمات المؤثرة عني وعن «فوكس»: «المستكشفان الجريئان»، «فقدا بأسف»، «خسارة عظيمة» وغيرها.

وفي القصاصة نفسها رأيت اعلانا ضخما عن رحلات عبر المحيط الهادئ: «رحلات منتظمة للولايات المتحدة والبرازيل...»

قلت: «استمع اليّ يافوكس. أريدك أن تذهب وتشتري تذكرتي طيران للبرازيل، ثم انتقِ بعض الملابس لكلينا أيضا، زي كامل لي، ولك ماتحبه وترغب فيه نفسك».

اندفع «فوكس» مبتعدا بخفة ونشاط، في حين بقيت أنا على الساحل لأمنع الهاوايين من الذهاب الى المسرح للاستعلام والتحقق، فقد كان آخر شيئ أفكر فيه هو أن أحجز هنا نتيجة سوء فهم أحمق.

قلت مقترحا: «لايبدو أن أحدا سيأتي للبحث عنكما اليوم، فما فائدة الجلوس هنا مكتئبين. لماذا لانؤجر قاربا وننطلق في رحلة قصيرة؟ الجو جميل ودافئ، والقمر بدر...»

أقنعتهما الفكرة! وقبل أن نبدأ عاد «فوكس» وقال:

– «ستكون الملابس جاهزة الليلة، أمّا عن التذاكر، فأنني اشتريت تذكرة واحدة لرحلة الغد. انها لك أيها القبطان، فقد بيعت جميع التذاكر».

قلت: «لاعليك. سنتولى أمر العمل غدا. أمّا اليوم فسنذهب في رحلة قصيرة».

كانت رحلة ممتعة، شاهدنا فيها كل المناظر الخلابة.

في اليوم التالي، وقبل موعد طيراننا بساعتين، ذهبنا الى الخياط. من الواضح أن الوغد انهمك في الشرب لأن ملابسنا لم تكن جاهزة.

صرخت به، ولكن الوغد المخادع اكتفى بهز كتفيه وقال:

– «لماذا؟ لقد توقعت مجيئك البارحة، أما اليوم فلا شيئ جاهز».

أليس ماقاله معقولا؟

قلت: «اذن اعطني شيئا ألبسه، فلا يمكن ركوب الطائرة ولايسترنا غير هذه القطع القليلة، أليس كذلك؟»

فقال وهو يخرج معطفا مطريا من درج مكتبه: «هذا هو كل ماأستطيع تقديمه لكما. لقد أوصى به رجل في

السنة الماضية، ولكنه لم يأت لاستلامه لسبب ما».

قلت: «حسن جدا. وكم ثمنه؟»

دفعت له المبلغ، ثم أخذت الرزمة وغادرت.

قال فوكس: «لو كنت مكانك لارتديته ياسيدي، فماذا لو لم يكن يناسبك؟»

أُلحق ماقال. لقد كانت فكرة صائبة. فتحت الرزمة وفي ظلال شجرة «الأثاب»* لبسته. كان حظي معاكسا هذه المرة. يبدو أن الرجل الذي طلب خياطة هذا المعطف كان بضعف طولي، أو ربما توقع نفسه أن يطول بمرور الزمن. على كل حال، كان ذيل المعطف يمسح الأرض.

ماذا أفعل؟ أُعيده؟ ولكن ذلك الخياط الوغد لايملك مايعوضنا به. هل أقص نهايته؟ سيكون عملا غير متقن، ومن المحتمل أن يرفضوا دخولي الى الطائرة. كما أن ارتداءه على هذه الحالة كان مستحيلا أيضا، لأنني سأسير فوق أذياله وأتعثر به طول الوقت. وبينما كنت أشحذ أفكاري، جاءني فوكس بفكرة حقيقية.

صاح: «ولماذا كل ذلك؟ انه رائع! سيستقل كل منا

* الأثاب: تين البنغال، وهو شجر ضخم من اشجار جزر الهند الشرقية.

الطائرة بهذا المعطف المفرد، وبتذكرة واحدة. انحني أيها القبطان ودعني أُعتلي كتفيك».

تسلق كتفي، ولبس المعطف المطري، ثم زرره وأُعدل من هيأته، وأُخيرا أمرني:

- «انطلق الى الأمام، فانني أرى رجل شرطة أعجبه منظرنا».

هرولت الى الطائرة فورا. أُخرج فوكس التذكرة، فقادتنا المضيفة الى كرسينا. جلسنا، أو الأصح، جلست أنا في حين وقف فوكس على الكرسي نفسه ورأسه يلامس السقف. اختلست النظر من عروة المعطف، فرأيت وجود خمسة ركاب الى جانبنا، والكل رابطون الأُحزمة في مقاعدهم. كان الصالون جميلا نظيفا، ففيه المرايا والسجاجيد الطويلة، وبدا الركاب لطفاء جدا.

بعد قليل دارت المحركات، وشقت الطائرة سطح الماء، فأصبحنا في الجو، كان الليل هادئا والنجوم متلألئة والطيران آمنا جدا على الرغم من هدير المحركات. غط المسافرون في نوم عميق وأنا بضمنهم، الآ «فوكس» الذي ظل مستيقظا واقفا الليل بطوله.

استيقظت في الصباح الباكر على صوت المسافرين

وهم يتجاذبون أطراف الحديث. اختلست النظر من خلال عروة المعطف، فرأيتهم ملتصقين بكوّات* الطائرة ليستمتعوا بمنظر جبال «الأنديز» حتى فوكس انحنى نحو الكوة، بينما حُكِمَ عليّ الجلوس في الظلام كالسجين في زنزانة منفردة، وفاتني مشهد بتلك الروعة.

شعرت بالحرمان القاتل. ولكي أُلهي نفسي، أخرجت غليوني من جيب المعطف المطري وحشوته ثم أشعلته وسبحت في أفكاري. وفجأة غمرت الصالون صيحات مرتاعة، وقفز الركاب من أماكنهم فزعين، وكنت أسمع **كلمة** «حريق!» تتردد في كل الاتجاهات.

رفسني «فوكس» بكعبيه وكأنه يرفس حمارا. وبالمقابل قرصته، ثم نظرت من خلال العروة لأرى سبب الفوضى.

رأيت غيوما من الدخان تنطلق من كل فتحة في معطفي. حقا، لم يكن المنظر ليختلف عن حريق.

* كوّة: نافذة في جانب الطائرة.

الفصل الثالث عشر

حيث يحارب القبطان افعى ضخمة ويعود ثانية لارتداء الملابس

نفضت الرماد على الارض. ووضعت الأعقاب تحت قدمي، ثم أُعدت الغليون الى جيبي. جلست هادئا كفأرة آملا أن يهدأ الخوف قليلا. وبعد قليل أطلّ قائد الطائرة برأسه علينا. شعرت بالسعادة، فلا بد أنه وقع في مأزق أسوأ، وهو الآن آت لتهدئة الركاب. ولكن بدلا من ذلك فقد- بدا أنه فقد عقله هو الآخر.

رأيته يشحب ، يلهث ، ويحاول التعلق بعتلة أو غيرها . ثم سمعت ضربة عنيفة وبعدها توقف هدير المحركات . وكل ما كان يسمع هو صوت صغير الرياح في الخارج . ومن فوقنا سمعت صوت غطسة كسقوط شيءٍ في الماء ، ارتج الصالون ، ثم طفا بنعومة .

كان بقية المسافرين قد انقادوا الى الجنون ، ولكنني كنت أعي الحقيقة . واليوم يعرف كل طالب في المدرسة يعرف المرجام* ، فهذه هي الطريقة التي يتبعها القائد لانقاذ نفسه في حالات الخطر . ولكن في هذه الأيام تستعمل آلة تسمى «اذهب الى الأسفل» ففي حالة الانفجار أو الحريق أو أي كارثة أُخرى على ظهر الطائرة كانفلات أحد الأجنحة ، فان القائد يسحب العتلة التي تفصل الكابينة عن بقية الطائرة حيث تنزل بوساطة المظلة الى الأسفل . انها بدعة مفيدة مافي ذلك شك ، ولكن في حالتنا ، كان واضحا أن تطبيقها مبتسر* .

لم تكن المناقشة لتجدي نفعا . انطلقت الطائرة في طيرانها في حين كانت حجرتنا تسبح في الهواء نازلة ببطء .

* المرجام : اداة يقذف بها الاطفال الحصى والحجارة .

* مبتسر : حدث في غير أوانه .

اختفى الدخان ، ولكن الركاب لم يتيقنوا أبدا ، على العكس وخاصة عندما أُحسّوا بأنهم في الهواء الشاهق . حتى «فوكس» شعر بالارتياح . كنت أتوقعه أن يقفز في أية لحظة ويسحب المعطف معه . كنت الشخص الوحيد الذي احتفظ برأسه مخفيا .

طبعا ، قطعت الرحلة وبطلت التذكرة ، ولكنني لم أكن أُحب فكرة انتباه الجميع اليّ وتحديقهم بي . سأكون مجبرا على تزويدهم بايضاحات وربما محاولة نكران تهمة التسبب في الفوضى الداخلية . لم أكن أستسيغ دور الرجل الملوم ، لذا قررت أن أستفيد من الهياج والفوضى وأتسلل خارجا . كانت اللحظة مؤاتية جدا : فالركاب مسعورون وقد أُغمي على البعض منهم ، كان مخرج الطوارئ فوقنا مباشرة في السقف .

هل سبحت في الأمزون من قبل أيها الشاب ؟ لم تسبح ولم تحاول . اؤكد لك أنه لايستحق المجازفة . انني أعرف ، فقد ذقت السعادة المبهمة المريبة .

تشبثنا أنا و «فوكس» معا وخرجنا من خلال فتحة الطوارئ وأخذنا حاجاتنا . كان النهر من تحتنا وفي غضون ثوان معدودات ارتمت الكابينة في وسطه تماما .

انحنيت فوق الفجوة وصحت داخلها :
– أهلا بكم في الأمزون سيداتي وسادتي ! إنني سعيد بالترحيب بكم في هذه المناطق البرية النائية» .
بدا المسافرون الواحد بعد الآخر . وبعد أن أدركوا عدم وجود خطر مباشر على حياتهم ، هدأت نفوسهم شيئا فشيئا ، وركزوا اهتمامهم على «فوكس» وعلى شخصي رأيت بانني يجب أن أقدم نفسي اليهم . وبما أنني لا استطيع اخبارهم بالحقيقة ، فيجب أن أبتدع قصة معقولة .
– «اسمحوا لي بأن أعرف نفسي : بروفسور الجغرافية ، كرستوفر رنجل ، أقوم باستكشاف علمي في مركز جنوب اميريكا ، وهذا مساعدي ومرشدي «فوكس» من الهند . لقد زرت هذا المكان كثيرا وانني معتاد على أجوائه . اسمحوا لي أن أدعوكم ضيوفي .صاحوا في نفسي واحد : «بكل سرور» .
ولكنني أحسست بانهم لم يؤمنوا تماما بكلماتي . أنا بنظرهم بروفسور ولا أرتدي غير بنطال قصير . أدركت بأن عليّ أن أغذي رؤوسهم لذا سألت :
– «هل الجميع موجود ؟» .

حدّقوا ببعضهم البعض ، وقال أحدهم :
– «كلا ، كان هناك رجل طويل» .
أكد كلامه آخر :
– «هذا صحيح ، رجل طويل لهبت في ملابسه النيران» .
سألت : «هل أنتم متاكدون ؟ أُدخل الى الكابينة يا «فوكس» وانظر ان كان هناك ، أو أنه يحتاج لاسعافات طبية» .
مضت بضع دقائق عاد بعدها «فوكس» ، وسلمني قبضة من رماد ، وكان ذلك كل مابقي من الرجل الطويل !
قلت : «آه ، ماأزعجه من خبر ! يبدو أن الرجل الطويل قد احترق وأصبح رمادا . فليتغمده الله برحمته .. والآن ، سيداتي وسادتي ، لنسحب المظلة الى الداخل سنحتاج اليها في وقت ما» .
أمسك كل منا بطرف حبل وبدأ يسحب . قلت أمرا :
– «ارفعوا ، معا» !
لسبب ما لم تتحرك المظلة من مكانها مع أنهم بذلوا

مافي وسعهم من جهد ، وفجاة رأيتهم يلقون بأطراف الحبال ويركضون نحو مؤخرة الطائرة ، يلتصقون ببعض ويرتعشون خوفا . أُمّا «فوكس» ، فقد أُخفى رأسه في فتحة الطوارئ ، وراح يحدق من هناك ويشير بأصبع مرتجف نحو المظلة . في حين وقفت المسافرة الوحيدة بيننا على أصابع قدميها ، ومدت يديها الى الجانبين ، ثم حركت ذراعيها وكأنها تريد الطيران عاليا ، وأخيرا أُطلقت صرختها .

نظرت حولي ، فكان الصراخ معبرا عن نفسي ، لقد رأيت في المظلة «اناكندة»* ضخمة لا يقل طولها عن ثلاثين مترا استلقت على المظلّة مطوية على نفسها تنظر الينا وكأنها تقيم كل واحد فينا في محاولة لاختيار لقمتها الأطعم .

لست أُملك سلاحا غير الغليون بين أُسناني .

صرخت «فوكس ! أعطني شيئا ثقيلا !» .

سلمني فوكس قذيفة من نوع ما ، وكانت ثقيلة جدا .

قلت بصوت عال : «ناولني المزيد !» ثم هدفت على

* الاناكندة : افعى جنوب اميريكية ضخمة من فصيلة البواء.

الوحش ، .

وكأن الأُناكندة كانت تطمح الى اقتناص القذيفة ، فقد فغرت فاها الذي يشبه الكهف ، فأُلقيت بالقذيفة في داخله تماما . ولكن ماأُصغر القذيفة بالنسبة لضخامة الأُناكندة ؟ لقد ابتلعتها بأقل من رمشة عين . أُسرعت الى الفجوة وصرخت بفوكس :

– «أعطني ماتصل اليه يدك !» .

وفجاة سمعت صوتا غريبا يهسهس خلفي ، التفت ، فرأيت الأُناكندة تتضخم وتنتفخ . كانت الهسهسة تنبعث من فمها مع زبد كثيف جدا .

فكرت في نفسي : «ستقفز عليّ الان» .

ولكنها غطست داخل الامزون واختفت عن الأُنظار .

وقفنا في أُماكننا متسمرين ننتظر الحدث القادم ، مرت دقيقة ، ثم أُخرى . بدأُ المسافرون يخرجون ويتفحصون المكان . وفجأة عادت المرأة لوضع الطيران السابق ، ثم بدأُت تصرخ ثانية .

فماذا رأيت هذه المرة ؟ ارتفع منطاد ضخم لامع الى السطح ، وحشي الشكل ، غريب اللون وأُخذ حجمه

في ازدياد وازدياد .

والآن ، ماذا يمكن أن يكون ذلك ؟ بدأ يزحف ، ثم رأيت له ذيلا يضرب ماحوله بهياج . أدركت أنها الأناكندة المسكينة التي قذفت في داخل فمها بمطفآت حريق ممتلئة . من المؤكد أنها اصطدمت مع بعضها داخل معدتها وبدأت تفرغ مابداخلها ، وتضخ في الأناكندة رغوة كثيفة. هل تعلم ماهو الضغط الموجود داخل مطفئة حريق ؟ لقد استقبلت الأفعى المسكينة طفوية* مفرطة ، وراحت تضرب بذيلها ماحولها عسى أن تغطس .

تبددت مخاوفي في الحال .

قلت : «أخرج يافوكس . لم يعد للخطر وجود» .

تسلق فوكس خارجا ووقف يستمتع بمنظر الأناكندة العائمة في حين تزاحم المسافرون ليشكروا مخاطرتي من أجلهم .

أجبت بتوضع : «لم أفعل شيئا . وماذا تعني الأناكندة ؟ لقد واجهت مواقف أكثر تعقيدا» .

تلك الحادثة رفعت منزلتي في عيونهم . وأكثر من

* طفوية : قابلية الطفو في الماء .

ذلك ، فقد حلت مشكلة ملابسي أيضا . لقد كانت السيدة المسافرة تمتلك حقيبة صغيرة مليئة بأعمالها اليدوية ، فاستعرت منها ابرة وخيطا وخطت لنفسي معطفا من قماش المظلة . كان أزرق اللون جميلا ، أما فوكس ، فقد وجدته مرتديا بدلة كاملة جاهزة الصنع أخذها من تجهيزات الطوارئ .

اقتطعنا بعد ذلك بعض الأشرعة ، ثم ثبتنا صاريا وأبحرنا فوق مياه الأمزون تغذي بطوننا الأسماك والسلاحف . وقد برهنت السيدة على كونها طباخة ماهرة ، وبهذا كانت المياة محتملة باستثناء بطء قاربنا وتقلقله الشديد .

مازلنا نزحف نحو الشرق باتجاه المحيط الأطلسي . قضينا شهراً ونصف الشهر للوصول اليه . كانت خلجان الأمزون تعج بالقرود والنباتات المتسلقة وأشجار المطاط ، وكل مايخطر ببال أكثر المسافرين فضولا وأبعدهم خيالا .

كانت رحلة تعلم واكتشاف ، الاّ أن الجو كان سيئا جدا ، فقد وصلنا في موسم الأمطار كان الجو فيه حارا رطبا ، والضباب كثيفا كالهلام ، هذا اضافة الى أسراب

البعوض . وغريب أن لم يصب أحدنا بالحمى الصفراء .

الفصل الرابع عشر

وجد القبطان رنجل نفسه في خطر مميت واخيرا اجتمع شمله ثانية باليخت

بعد مدة طويلة وصلنا ميناء مدينة «بارا» . الحقيقة انها كانت مدينة قذرة ، متربة ، حارة ، مليئة بجماعات الكلاب السائبة التي تعدو في الشوارع . ولكن بعد وحشية الأمزون ، أصبحت «بارا» في عيوننا مدينة متحضرة راقية مع أن سكانها المحليين لم يبد عليهم

التحضر. وفي الواقع ، كان مظهرهم يدل على السوقية وكل منهم يحمل سكينا في حزامه . ومجرد السير في الشارع كان مجازفة خطرة .

نظفنا أنفسنا وحلقنا لحانا بعد تلك الرحلة الطويلة . ثم ودعني رفاقي واستقلوا سفينة أبحرت بهم الى بيوتهم . كنت وصديقي فوكس نفضل الذهاب معهم أيضا ، ولكن ذلك مستحيل بلا أوراق رسمية ولن يسمحوا لنا بالمغادرة .

وقفنا هناك كعقربين في خليج ضحل نتسكع في بلد غريب بلا ملجأ ولا عمل وبلا وسيلة للعيش والبقاء . حاولنا البحث عن عمل ، ولكن الأعمال كانت قليلة وكلها في مزارع المطاط . وهذا يعني أن نعود ثانية الى الأمزون . ومجرد التفكير بذلك يوجع قلبينا ، فقد فاض بنا الكيل مما رأيناه في هذا النهر.

تجولنا في المدينة بعض الوقت ، وأخيرا جلسنا على مصطبة في أحد المواقف لمناقشة وضعنا الجديد . وفجأة اقترب شرطي منا وقال بأن الحاكم يريد مقابلتنا . كانت دعوة تشبع الغرور والكبرياء ، ولكنني لاأستسيغ الاستقبالات الرسمية ومقابلة أشخاص مهمين جدا ، كما

لم نكن في وضع يسمح لنا برفض الدعوة ، لذا رافقنا الرسول .

برهن الحاكم على كونه فرس نهر ، فقد استقبلنا وأجلسنا في حمام ، كانت المروحة بيده وهو يشخر ويطرطش الماء كفرس نهر حقيقي . وعلى جانبي الحمام ، وقف معاونان في زيهم الكامل .

سألنا الحاكم : «من أنتما ، وماذا تفعلان هنا ؟»

قلت : «هذا هو مساعدي «فوكس» الذي أخذته من «كالي» . وأنا القبطان «رنجل» ، ربما تكون قد سمعت عني ؟»

عندما سمع الحاكم اسمي ، أخذه الفزع ، وألقى بالمروحة من يده ، وغطس في الماء . كان من الممكن أن يموت غرقا لولا انقاذ معاونيه له ، حيث سحباه الى الخارج وهو يسعل . وبعد أن استعاد أنفاسه قال :

– «ماذا ؟ القبطان رنجل بنفسه ؟ ماالذي سيحدث الآن ؟ اضراب ، حرائق ، ثورة ، تأنيبات رسمية ، عقوبة . . . . آه ، كلا ! انني معجب بشجاعتك مافي ذلك شك ، ولست معاديا لشخصك ، ولكنني كممثل للحكومة الفيدرالية ، أصر على مغادرتك مكان

سلطتي في الحال . أصدرّ للقبطان سماحا بالخروج أيها الملازم !»

كانت الأوراق جاهزة ، فسلمها اليّ على الفور . وهذا هو الوضع الذي أُريد ، لذا انحنيت وقلت بأدب جم :

— «أمرك ياصاحب الجلالة ! انني على أُتم استعداد لتنفيذ أُمرك . هل بامكاني الذهاب الآن ؟»

بهذه الكلمات استدرت على عقبي وخرجت ، ثم تبعني فوكس . توجهنا مباشرة نحو الميناء . وفجأة سمعنا صوت أُقدام كثيرة من خلفنا . أُلقيت نظرة الى الخلف ، فرأيت حوالي أربعين من البشر يرتدون أُحذية طويلة وقبعات ملتوية ، بأيديهم سكاكين وأُسلحة اوتوماتيكية . تعالت صيحاتهم :

— «وجدناهما ، أُقبضوا عليهما ، أمسكوا بهما !»

انهم في أعقابنا ولاريب . كان آخر شيء يخطر ببالي هو أن يقبض علي الآن . ولم يكن أمامنا غير اطلاق ساقينا للريح . ركضنا مسافة ، ثم تمهلت لأسترد أنفاسي ، فلم أكن قادرا على الركض الطويل في تلك الحرارة الحارقة وفي عمري آنذاك . أما «فوكس» فكان

شابا يانعا كزهرة ربيع ، ورشيق في بنيته . كان الركض سهلا بالنسبة له كما أن تسارع الأحداث السيئة زادت من وعيه . رأيت وجهه يشحب وحدقتيه تتسعان خوفا وهو يقف الى جانبي ، وفجأة برق وجهه بشرا وانتشلني من مكاني ثم وضع شيئا على ظهري وقال :

— «ابق مكانك أيها القبطان ، وسأركض أنا ، فأنت بأمان حيث أنت .»

وراح يشق طريقه الى الأمام .

لم أتوقع منه تركي في ذلك الموقف الحرج . والشيء الوحيد الذي أمامنا هو أن نتسلق نخلة . أسرعت بتسلق واحدة وأنا أسمع المتعقبين يقتربون أكثر في كل ثانية ، وحين وصلت الى منتصف النخلة ، نظرت الى أسفل ، كان لهم منظر مخيف عن قرب ، فكلهم رجال ضخام الأجسام ، ذوو وجوه قاسية الملامح ، وأفواه صارخة . شعرت بضعفي من شدة الخوف . وهذه هي الحقيقة ، فقد بدوا وكأنهم جميعاً على جذع النخلة معي . التصقت بالجذع تمسكا بالحياة . كانوا يطوفون حول الجذع وهم يصيحون ويدّكون الأرض بأقدامهم . ومن كل ماقالوه لبعضهم ، فهمت بأنهم جماعة من الشرطة السرية

وليسوا عصابة صيادين كما ظننت . ثم تبين أن الحاكم قد غير رأيه وندم على لطفه ، فأرسل في أعقابنا لايداعنا السجن .

مرت خمس دقائق ، عشر ، كانت يداي متعبتين جدا وأنا اتشبث بالجذع بقوى خائرة . دقيقة أخرى وساسقط الى الأرض . فليكن مايكون ! نزلت . ولكن . . . . لاأحد منهم تجرأ على الاقتراب . نظرت اليهم بتساؤل وحيرة ، ثم تركتهم وبدأت أسير في الشارع ، ولسبب ماترددوا في ملاحقتي . ثم ابتعدوا عني مسرعين .

عدت ثانية الى ذلك الموقف وتلك المصطبة . وفي الفجر أيقظني فوكس وحياني قائلا :

– «صباح الخير أيها القبطان . هذا أنت سالم .»

– «نعم ، ولكن لماذا ؟»

قال : «أهذا هو اللغز؟» ثم مشى خلفي ونزع عن ظهري راية القراصنة في شكل جمجمة وعظمين متقاطعين . لاأدري متى لصقها بي ، ولكنه على كل حال أنقذني .

قضينا وقتا طويلا نضحك على الحادث . ويظهر أن

«فوكس» لم يضيع الوقت ، فقد اشترى تذكرتين لركوب السفينة . وفي الميناء أخرجت الورقة التي أعطانا اياها الحاكم ، فسمحوا لنا بالدخول من غير اعتراض ، وتمنوا لنا رحلة طيبة . سافرنا بترف في غرفة جميلة حتى وصلنا «ريو دي جانيرا» .

ومرة أخرى بدأنا نعمل التحريات ، فاكتشفنا بأن «ريج» قذفتها الأمواج الى منطقة ساحلية ليست بعيدة عن المدينة . لقد تحطمت طبعا ، ولكن «لوم» قام باصلاحها ، ثم اسندها قرب الشاطئ بانتظار أوامر أخرى . لقد طال انتظاره وعاش كناسك في كوخ على الساحل .

استأجرت مع «فوكس» عربة أجرة محلية وهي عبارة عن سلة مثبتة على عجلات ، وذهبنا الى العنوان الذي أعطوه لنا أثناء بحثنا عن «ريج» . وحين وصلت العربة في سيرها الى الساحل ، سنحت لنا الفرصة لرؤية صورة حزينة ولكنها مثيرة ، توضح حالة الاقتصاد المحلي . فقد أبصرنا ما يقارب المائتي حمال يسيرون في خط واحد من مستودع للبضائع وحتى حافة الماء . أدركت آنذاك أنهم يلقون بالسكر في البحر بملء أكياسه ، وبهذا أصبح البحر

غليظ القوام كعصير مركز ، وكان النحل والذباب يحوم بهيئة أسراب فوق مياه البحر .

تساءلنا عن سبب ذلك ، فأُخبرونا بأن الحاجة الى السكر قد انتفت ، وأن الأسعار منخفضة جدا حتى أنه من الحكمة (اقتصاديا) اغراق السكر في البحر بدلا من بيعه بسعر بخس . وبهذه الطريقة ستكون الأسعار ثابتة ويرتفع المستوى المعيشي . وبعبارة أُخرى ، كان عملهم صحيحا ولايدعو الى الاستغراب .

مضينا في طريقنا ، وبعد قليل أبصرنا حبيبتنا قرب الساحل تنتظر قبطانها الذي لايقهر وبجانبها شخص يلبس قبعة عريضة كمظلة وسروالا مشرشبا ويضع سكينا في حزامه . انطلق الينا سالكا أقرب المسالك وهو يحمل السكين . غاص قلبي . ولكن لا . لم يكن سفاحا . انه «لوم» متشح برداء المنطقة المحلي .

تعانقنا وبكينا قليلا . ثم قضينا المساء في تبادل الأخبار والمغامرات التي صادفتنا . في الصباح التالي ، ثبتنا الأوتار وعومنا اليخت ، ثم رفعنا العلم . انسكبت دموعي مدرارا . سعادة عظيمة أن تجد نفسك على ظهر سفينتك مرة أُخرى . الآن نستطيع الاستمرار في

رحلتنا ، ولم يبق غير تنظيم الأمور مع سلطات الميناء .

لم أتوقع مواجهة المشاكل هناك . لذا جئت الى قبطان الميناء وسألته مستوضحا ، ولكن حالما وقع بصره علي ، احتقن وجهه وبدأ يصيح :

– «آه ، اذن فانت قبطان الريح ؟ مثير المتاعب ، هذا هو أنت ! لقد تسلمت حزمة من الشكاوى ضدك من كل أنحاء العالم . قال الأدميرال «كوساكي» بأنك حطمت الجزيرة . وقد أُبلغ حاكمنا بأنك قد غادرت ميناء «بارا» من دون اذن السماح . . . .»

قلت : «هذا ليس صحيحا . وهذا هو تصريح الخروج . اسمح لي . . . .»

انفجر صائحا : «كلا ! لن أسمح بأي شيء . فنحن لم نجن منك غير المشاكل ! أُخرج من هنا ! أيها الملازم ! آمرك باغراق ذلك اليخت في الحال !»

انها مشكلة عظيمة . أُسرعت عائدا الى اليخت ، فوجدت موظفا مخولا بعملية الاغراق . ولم يضيعوا دقيقة واحدة للخلاص منه .

سألني : «هل هذا هو اليخت المطلوب اغراقه ؟ لاتقلق ياسيدي ، سنغرقه في لحظة .»

كنت في قمة فطنتي وذكائي . فحالما يغرق اليخت ، سأُحاول انقاذه وانتشاله من قعر البحر ! ومرة أُخرى أُنقذتني اتساع حيلتي .

فقلت : «ماالذي ستستخدمه من أثقال في هذه العملية ؟ الرمل ؟ سيكون العمل شاقا بالنسبة لك ، لماذا لاتحمل السفينة بأكياس السكر هذه ، فهي معدة للرمي في البحر؟ ان الأكياس مربوطة ومجهزة وستكون مهمتك أكثر سهولة بكل تأكيد .»

قال : «الحق ماتقول . انها فكرة رائعة .»

أسرع الحمالون على طول الممر الخشبي وكل في أُعقاب الآخر . وراحوا يكومون أكياس السكر فوق بعضها البعض . بدأت حبيبتي «ريج» تغرق شيئا فشيئا تحت وطأة الوزن الثقيل ، وبعد قليل لم يبق غير الصاري فوق سطح الماء ، ثم سمعنا بقبقة واختفى الصاري أيضا . راقب «فوكس» و «لوم» عملية اغراق حبيبتهم والدموع في مآقيهم . أمّا أنا ، فكنت في أُحسن حال ، ومزاج رائق . ثم أُخبرت رفيقيّ بأننا سنبقى في المخيم حتى تطفو «ريج» . وبزمن لايزيد على ثلاثة أيام ذاب السكر وارتفع اليخت فوق صفحة الماء . نظفناه ، ونشرنا الأشرعة ، ثم ودعنا

الشاطئ غير المضياف . وحالما أبحرنا مبتعدين ، رأيت قبطان المرفأ يعدو خارجا من مكتبه وهو يصرخ :

«عد في الحال ! لن أسمح بذلك !»

وحين حاذيناه ، وجدت فيه الصديق العجوز الأُدميرال «كوساكي» وبجانبه قبطان المرفأ .

لوحت لهما مودعا ومضينا في رحلتنا .

الفصل الخامس عشر

حيث يترك لوم السفينة مرة اخرى

من البرازيل توجهنا بالرحلة نحو الغرب ، ولكن مامن أحد يستطيع عبور قارة يابسة بقارب شراعي ، لذا طفنا حول اميريكا الجنوبية ، وهذا الطريق يأخذنا جنوبا . كانت الرياح مؤاتية موافقة لاتجاه السفينة ، فانتصبت الأشرعة وتوترت الحبال وكان الماء مزبدا في مؤخرة السفينة التي انطلقت بنا بسرعة كبيرة بحيث كنا نقطع مائتي ميل في اليوم . ولم يكن لدينا مانقضي به

أوقات فراغنا ، واصبح «لوم» و «فوكس» كسولين جدا ، وتخلخل الانضباط ، فقررت أن اجدلها عملا .

قلت : «كفاك كسلا يا لوم ، اذهب الى الأجزاء النحاسية في السفينة ، امسحها ولمعها حتى لتحترق !» .

قال لوم : أمرك ، أمرك سيدي .» ثم التقط آجرة وخرقة وبدأ يصقل النحاس ويلمعه . نزلت التمس غفوة ، ولكنني استيقظت على صراخ فوكس . فقفزت راكضا الى حيث مكان الصوت ، في تلك اللحظة سقط عليّ «فوكس» شاحب الوجه مرتجفا وقال :

«حريق على السطح أيها القبطان !» .

انطلقت كرصاصة الى السطح وفعلا كانت الألواح الخشبية تحترق في موضعين ، ولم يعرها «لوم» أي اهتمام ، فقد جثم قرب أحد جوانب السفينة منهمكا في صقل وتلميع المربط * .وفجأة رأيت اللهب يرتفع منه أيضا . ضعقت .

وصرخت : «لوم ! ماذا تظن أنك فاعل ؟» .

نهض «لوم» بهدوء وابتلع ريقه ، ثم أجاب :

– «انني أنفذ أمرك ياسيدي – أصقل الأجزاء النحاسية

* المربط : ممسك لحبال السفينة .

حتى تحترق !» كنت اوشك أن أوبخه بقسوة ، ولكنني أمسكت زمام نفسي ، فهي غلطتي على كل حال . ان الكاتب أو الممثل قد يسمح لنفسه باللغة المبهرجة ، ولكن عند التعامل مع ملاّح ، فيجب أن نكون دقيقين في عباراتنا معه ، ويجب أن لا يكون ضمن كلامك أي التباس ، لأنك لا تعرف كيف سيترجم أمرك . كان «لوم» رجلا من بين الف – مجد ، حي الضمير ، ولكن كان دائما يفهم كلامك حرفيا بمعناه الظاهري . كما أنه كان قويا كالثور ، لذا توجب عليك مراقبة نفسك وأخذ حذرك ان كنت لا تريد للمشاكل وجودا .

بدأت أصحح من أمر خطأي ، فقلت .

«كف عن صقل النحاس ! انذار ، حريق !» .

أسرع «فوكس» الى الجرس . وحسب جرس الانذار وجب على «لوم» أن يكون في مكان الحريق ، أما أنا فركنت لنفسي عملية توجيه اليخت . لسبب ما أثبتت تقديراتي عدم فاعليتها ، فقد استمرت النيران في انتشارها ، وربما يمسك لهيبها الأشرعة في أية لحظة أدركت بأن الوضع يسير نحو الأسوأ ، فأدرت الدفة دورة كاملة لتصبح السفينة في وجه الريح . وقد نجحت حين

نفخت الريح اللهب بعيدا . ثم تحرك اللهب متلاطما وكأنه قطار بخاري ، ثم ابتعد القطار ، فاختفى الدخان . وفهم «لوم» بأن حماسه الشديد سبب أسوأ جو عرفه البحر .

ثم حولنا وجهة السفينة مرة أخرى ، واستبدلنا ألواح السطح المتفحمة . ومن دون أي حوادث أخرى ، اقتربنا من (راس القرن) ، وذلفنا الى المحيط الهادئ .

وهنا صادفتنا أوقات سيئة ، فبقرب شاطئ «غويانا الجديدة» اجتاحتنا موجة «التيفون*» . بدأت «ريج» تتقاذف كذ مجرة الماء ، تغوص وتطفو ، ثم تغوص ثانية ، وسقطت جبال من الماء على سطحها . كنت أسمع صرير الحبال ، وأرى انحناء الصاري . وهذا هو التيفون .

وعلى حين غرة ، بدأت السفينة بالدوران في رقعة واحدة ، ثم هدأت الرياح تماما . عندذاك تنهد «لوم» و «فوكس» ارتياحا ، فقد كانا جاهلين بشخصية التيفون الغرارة . أمّا أنا ، فكنت أعلم ماذا تعني بهدوئها ، فغاص قلبي خوفا ، لقد أصبحنا في محور الاعصار . ومن المؤكد أن الريح ، وبعد ركود مؤقت ، ستبدأ ثانية بالصغير وكأنها الف شيطان . وفي غضون ثوان انفلق الشراع

* التيفون : اعصار استوائي يحدث غالبا في منطقة الفلبين او بحر الصين.

نصفين ، ومن ثم انحنى الصاري وكأنه صنارة صيد انقصفت نصفين وانهارت على سطح السفينة بأشرعتها وحبالها وكل ماعليها ، فأصبحت عارية تماما .

وعندما سكن غضب المحيط قليلا ، بدأنا عملية جرد لما على السفينة من أجهزة . كانت الخسارة عظيمة . ولا يمكن تعويضها . اننا نملك أشرعة احتياطية وحبالا في المخزن ولكن مافائدة الأشرعة بدون صاري ؟ كنا في أكثر المسالك سهولة ، وكان المحيط بعيدا عنا ، ولولا ذلك ، لانحرفنا الى وسط المحيط ولقضينا فيه سنوات نواجه الموت البطيء . تذكرت آنذاك حياتي الماضية وفكرت عميقا بطفولتي وألعابها البسيطة البريئة .

صدق أو لا تصدق ، هذه الذكرى زودتني بمفتاح النجاة . كنت كصبي ، مولعا بلعبة الطائرات الورقية . هللت في نفسي فالطائرة الورقية هي مانحتاج اليه .

استعملنا سلال الخوص في عمل هيكل الطائرة . ثم غلينا بعض الصمغ ، وجمعنا كل الأوراق التي بحوزتنا من كتب الى جرائد الى مستندات تجارية وغيرها . جلسنا للصقها معا وخرجنا منها بطائرة ورقية من الدرجة الاولى . وحين جف الصمغ ، اخترنا حبلا وانتظرنا حتى ارتفعت

الرياح ، ثم قمنا بتطبيرها .

كانت قوة سحبها عظيمة ، حيث منحت اليخت سرعة وأصبح مطيعا لعجلة القيادة مرة أُخرى .

وفي داخل غرفتي ، نشرت خريطة لأُختار أقرب مرفأ نستطيع فيه اصلاح مافسد . وفجأة ، سمعت صوتا غريبا وكأن شيئا ما كان يطقطقه على ظهر المركب . تنبهت وأسرعت خارجا ، فرأيت صورة مرعبة : رأيت الحبل الذي يربط الطائرة قد التصق برافعة المرساة ، وأن الاحتكاك فركه بشدة حتى أصبح الحبل المتين بسمك الخيط الدقيق .

خرج صوتي هادرا : «ليصعد الجميع الى السطح !» .

صعد رفيقاي في لمح البصر ووقفا في انتظار أوامري .

ولكنني لم أستطع اختيار الأمر الصحيح . فالمطلوب الآن هو أنشوطة ، ولكن الرياح كانت قوية والحبل متوترا كأوتار الجيتار . ومن غير الممكن عقد الوتر كما تعلم . شعرت بأن كل شيء قد انتهى بعد أن فسد اختراعنا ، وهنا أنقذتنا قوة «لوم» الهرقلية الجبارة ، فقد قبض على الحبل بيد واحدة ، وحاول أن يعقده باليد

الأخرى ، أجهد عضلاته ..... وسحب الحبل .

صحت به : «اثبت حيث انت! لاتدعه يفلت من يدك!».

ثم بدأت أعقد انشوطة.

ولكن في تلك اللحظة، ارتفعت ريح شديدة، فازداد شد الطائرة وانفلت القيد من أُرضية اليخت كما تنسحب الجزرة من تربتها. حلق «لوم» بين الغيوم مع آخر صرخة له : «أمرك، أمرك سيدي!».

حدقت خلفه مصعوقا. وفي غضون ثوان كان رفيقنا الشجاع كنقطة سوداء بين الغيوم وبدورها اختفت تاركة ايانا تائهين في وسط المحيط .

وأخيرا أفقت من ذهولي ونظرت الى البوصلة لتحديد الاتجاه الذي تلاشى فيه. ثم حددت قوة الرياح التقريبية، فكانت نتيجة غير مشجعة أبدا. كانت قوة ست دورات* تحمل رفيقنا بسرعة خمسة وعشرين ميلا في الساعة باتجاه شواطئ (أرض الشمس المشرقة). ومرة أُخرى مضت «ريج» تمايل فوق الأمواج مجردة من الدفع

* تتكون دوراة الرياح من اربعة انصاف دوائر. وكل اثنين مثبتان ببعضهما بواسطة قضيب. يتقاطع هذان القضيبان. وعند هبوب الرياح تدور الدوارة وتزداد سرعتها بازدياد سرعة الريح.

وخارجة عن زمام سيطرتنا.

بعد أن أدركت عدم قدرتي على التفكير بشيء أو مساعدة «لوم» وأنفسنا، قررت أن أؤجل حل المسألة ونزلت الى غرفتي. ولكن حالما غفوت، أوقظني فوكس :

— «اصعد أيها القبطان وانظر!».

فركت عيني لأصحو، ثم ارتقيت السلّم الى السطح، فهل تصدق مارأيت! لقد أبصرت جزيرة مرجان الى اليمين، وقرب ساحلها بحيرة ضحلة محاطة بأشجار النخيل. لو استطعنا الرسو هناك، لأصبح ممكنا الحصول على صار جديد ووضع أشرعة بديلة. بعبارة أُخرى، لقد ابتسم في وجهنا الحظ، ولكن واحسرتاه! لقد كانت ابتسامة كاذبة.

أُحكم بنفسك، كانت الريح تقودنا ببطء الى الأمام. وبعد مدة حاذينا الجزيرة التي كانت قصيرة الطول كذراع مع أننا لانملك ذراعا بطول خمسمائة ياردة. وباختصار كنّا ننجرف بسبب التيارات المائية بعيدا عن الجزيرة.

كان من الممكن لشخص أقل الهاما أن يفقد عقله، ولكني لست ذلك الشخص، فالعملية التي ينصح بها في

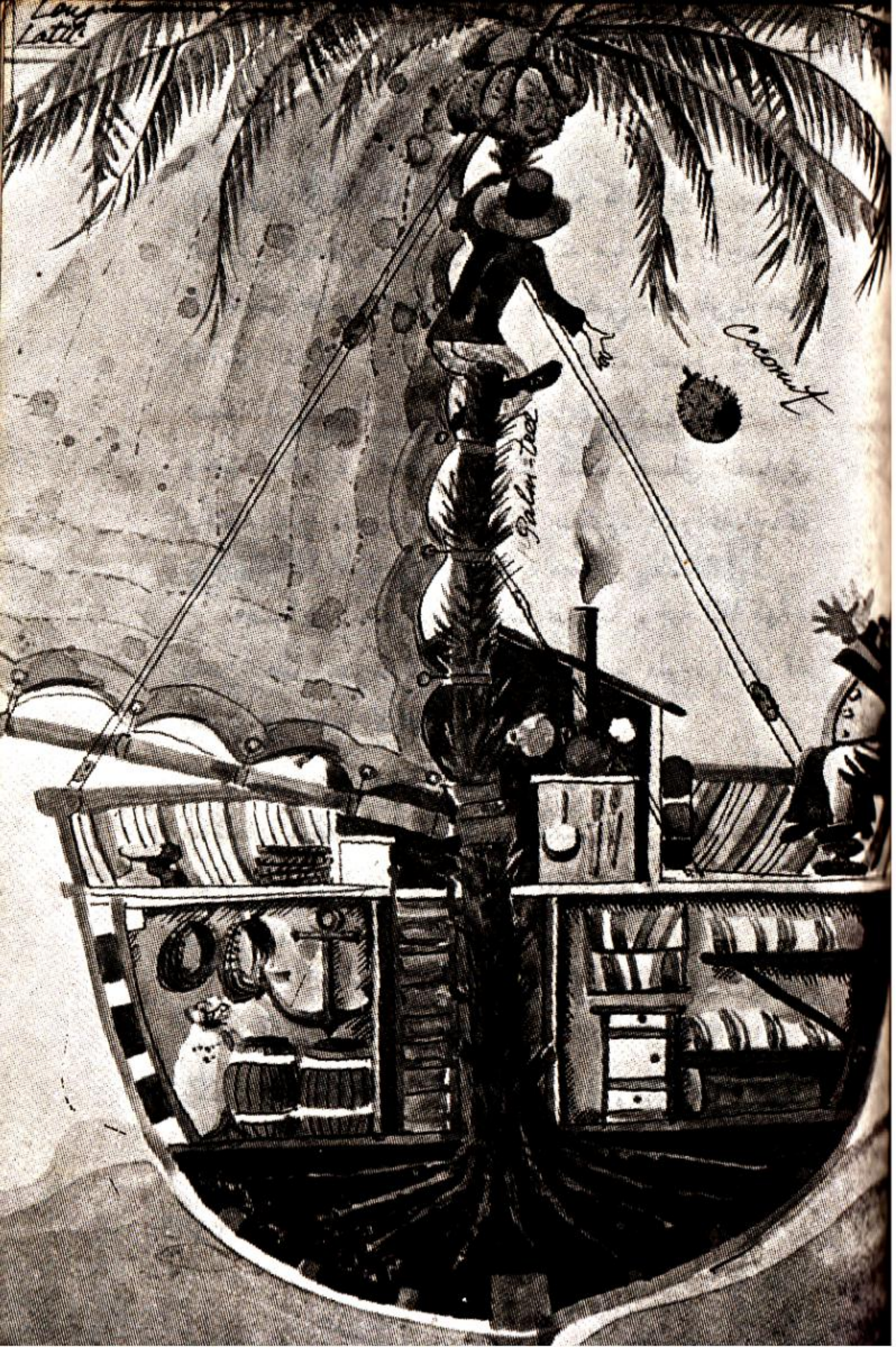
أحوال كهذه هي قذف المرساة قرب الساحل برمية طويلة المدى. ولايمكن قذفها باليد، فهي تحتاج الى مدفع أو صاروخ. نزلت مسرعا الى غرفتي وبدأت أُنقب وأبحث بين حاجاتي. وياللأسف، لم أُعثر على أي صواريخ أو بنادق، فلم يخطر ببالي أن أُجهز نفسي ضد هذا النوع من الطوارئ. لذا قمت باستخدام كل صنوف الأربطة وحمالات السراويل وغيرها، وهذه لاتفيد في وسط البحر.

ومرة أُخرى أنقذتني مهارة طفولتي.

أرأيت، أنا لاأدعي أنيّ كنت صبيا مثاليا، ولكن على العكس، فقد كنت معروفا كصبي مزعج، وأشد مايسعدني في وقت الفراغ هو قذف الحصى بالمرجام.

وحالما عادت اليّ مخيلتي صورة المنجنيق (المرجام)، وضحت أمام عينيّ فكرة استخدام حمالات البنطلون لهذه الآلة. لذا أخذت ستة أزواج من الحمالات، ثم عدت الى السطح وشكلت مايشبه منجنيقا ضخما.

أُصبحت الأحداث التالية واضحة : فقد زودنا المنجنيق بمرساة صغيرة، ومن ثم قمنا نحن الاثنين وبمساعدة رافعة المرساة بسحبه الى الخلف بقدر مرونته،



ثم تركناه. انطلقت المرساة الى الأمام كالسهم حاملة معها حبلا خفيفا ولكنه قوي. لحقته بنظراتي، فرأيت كل شيء كما توقعت، فقد شبكت المرساة.

وبعد نصف ساعة، كنا على الجزيرة يتردد صدى فؤوسنا في الصمت المهيب لغابة نائية. كان عملا شاقا ولاريب، فلم يكن هناك غيرنا نحن الاثنين، ومع ذلك نجحنا في تخطي المصاعب.

لقد أصابنا الاعصار بضربات شديدة في كل جانب، والكثير كان محتاجا للاصلاح. قمنا باغلاق الشقوق في جوانب السفينة، ثم قيرنا قعرها، وأقمنا صاريا جديدا، فانتصبت (ريج) مرة أخرى. وأعود هنا الى الصاري، فقد توصلنا الى فكرة حاذقة حقا: حيث انتزعنا نخلة نحيفة الساق مع جذورها وزرعناها في مخزن السفينة السفلي الذي ملأناه بالتربة بدلا من ثقل الموازنة*، ومن ثم ثبتناها بحبال الصاري. تم كل شيء حسب مارسمت له، وأنبتت النخلة جذورا جديدة بعد سقيها عدة مرات.

قضينا وقتا في خياطة أشرعة جديدة، وأخيرا سرنا في دربنا الجديد.

---

* ثقل الموازنة: ثقل يستخدم في سفينة أو منطاد لحفظ توازنها.

من المؤكد أن شكل القارب كان غريبا بسعف النخيل الأخضر يتمايل فوقها. ولكنه هيأ لنا ظلا جميلا، كما كانت خضرته تسعد العين. ولم تمضي مدة طويلة حتى بدأت النخلة تحمل ثمارها. لايمكنك تصور سعادتنا عندما انكسر الروتين والملل وخاصة في مدة الحراسة وتحت الحرارة القاتلة، حيث كنت أتسلق الصاري وأقتطع ثماراً صغيرة مليئة بسائل منعش، فللزراعة العائمة فوائدها.

مضينا في المسير، وانتعشت صحتنا بوجبة الفاكهة، ونحن ننطلق بسرعة ثابتة بطيئة علنّا نبصر «لوم» الذي قد يكون في هذه الأنحاء على اليابسة.

أبحرنا مدة يومين، وفي الثالث، لمحنا أرضا أمامنا مباشرة. وخلال تلسكوبي، تمكنت من رصد أحد الموانئ، واستطعت أن أدنو من الفنارات وأن أرى مدينة على الساحل.

كانت مجازفة مني أن أعرج على ذلك المكان، لذا قررت أن لاأفعل، فهم لايرحبون بالأجانب في اليابان. وكنت على يقين أيضا من أن الأدميرال (كوساكي) يتمنى لو ينزع جلدي، لذا وجب عليّ التغاضي عن هذا المكان. وإن لسعت مرة، فيجب أن تأخذ حذرك مرتين.

الفصل السادس عشر

الأكثر حزنا، لأن «ريج» فقدت بلا رجعة

تجنبت ميناء اليابان وابتعدت عنه، وانطلقنا في الابحار يوما آخر. ولكن باقتراب المساء، غشت سحابة من الضباب الكثيف البحر حتى أنني لم أستطع رؤية يدي. وأصبح كل مايحيطنا كالنفير يطلق صفيراً ويدق أجراساً. كان الوضع مخيفاً بعض الشيء. وفجأة سمعت صوت قارب يقترب بأقصى سرعة. ثم... لاح أمامنا

طوربيد، انحرفت جانباً، فلحقني. أدرت الدفة بقوة نحو اليسار، ولكنه تبعني كذلك.

ودوىّ في ذلك الصمت صوت تحطم مروع، وتناثر الماء على ظهر المركب. لقد رأيت بأم عيني المسكينة «ريج» وهي تنشطر الى نصفين وتبدأ بالغوص البطيء. والآن فقدناها الى الأبد.

قلت : «فوكس، خذ قارب نجاة واسبح غرباً، فاليابسة ليست بعيدة.»

سألني : «وماذا بشأنك أيها القبطان؟».

أجبته : «ألوقت ليس ملكي، ويجب أن أقوم بمحاولة أخيرة بوساطة جذع النخلة. سأغادر سفينتي، ولكنني لا أشعر بميل لزيارة اليابان.»

-«ولا أنا أيها القبطان، وأفضل الذهاب معك الى أي مكان آخر.»

قلت مستفسراً : «ولماذا يافوكس. انها أرض يابسة، بلد رائع وفيه جبل «فوجي ياما».»

قال فوكس : «وماذا أفعل بجبل «فوجي ياما»؟ انني لن أعثر على عمل هناك، أمّا بالنسبة لتجارتي السابقة، فلا أحد يستطيع ضرب اليابانيين بخفة اليد. انهم

سينفضون ماعندي بلمح البصر، لذا أفضل البقاء معك.»

تأثرت باخلاصه، وشعرت بقوة تعتري. أوصالي. فقلت في نفسي :

-«فليكن مايكون. وحيث توجد الارادة، تكون الوسيلة.»

أصدرت أمري، فما زلت القبطان : «فليصعد الجميع الى ظهر السفينة! انزع الحبال، ألقِ الصاري!»

وهنا برهن «فوكس» على قوته في تحطيم الأشياء. لاشك في أن الهدم أسهل بكثير من البناء. وبوقت قصير أنزلت النخلة وتمّ تعويمها. قفز «فوكس» فوقها مباشرة وقمت أنا بالقاء بعض الأشياء الثمينة اليه كالطافية*، والبوصلة مع صندوقها، وزوج من المجاذيف وبرميل ماء، اضافة الى بعض الملابس....

بقيت واقفاً على سطح سفينتي حتى شعرت بمؤخرتها ترتفع والقوس الأمامي ينزل بثبات الى الأسفل، لحظة أخرى وتغرق.

طفحت الدموع في عيني. وفي تلك اللحظة الأخيرة،

* الطافية: عوامه لارشاد السفينة.

تناولت فأساً، وبيديّ الاثنتين قطعت اللوح الخشبي الذي يحمل اسمها النحاسي.

ثم قفزت في الماء واعتليت ظهر النخلة. رحت أراقب المحيط وهو يبتلع بقايا سفينتي التي طالت معاناتها.

انهلّت الدموع الحارة من عيني «فوكس» انهلال المطر.

فقلت له وأنا أربت على كتفه : «لاتقلق، ولاتقل انها ماتت.»

جلسنا صامتين مدة طويلة نتأمل بقعة أغلقت فيها الأمواج أنيابها على «ريج». ثم بدأنا ننشىء بيتاً على ظهر الجذع، ولم يكن بالبيت السيء.

من غير شك، أننا لم نكن نملك كل التجهيزات الحديثة، ولكننا ملكنا كل ماهو أساسي للابحار. ثبتنا البوصلة، ووضعنا مايشبه الشراع وهو مصنوع من قميص لبحار قديم، وعلقنا الطافية على فرع جذري، في حين استخدمت اللوح الخشبي كمنضدة لي.

لم يكن الوضع سيئاً جداً لولا الرطوبة تحت أقدامنا.

وبعد مدة قصيرة، لاح لنا عمود من الدخان في الأفق. ظننت في بداية الأمر أنه القارب الطوربيدي

نفسه، ولكن تبين بعد قليل أنه ليس الاّ قارباً تجارياً يرفع العلم البريطاني.

لم أحاول طلب المساعدة لاعتقادي بأننا نستطيع المضيّ هكذا. ولكن، عندما رأى قبطانها منظرنا المؤسف وراقبنا من خلال منظاره المكبر، قرر مساعدتنا وخاصة عندما لم يَرَ أي علائم للخوف من جهتنا كما لم نحاول ارسال أية اشارة استغاثة أو خطر.

بعد حوالي نصف ساعة، انتشلنا الى السفينة ودعانا قبطانها الى كأسٍ من الرّم. وبدوري قدمت له جذع النخلة كهدية، وكذلك المجذافين والبوصلة، واحتفظت بطوافة النجاة ولوح الكتابة كتذكار من «ريج».

أخبرني القبطان بأنه في الطريق الى كندا لتسلم حمولة من الخشب. ناقشت معه بعض الأمور وتبادلنا الأخبار، ثم تركني مع بعض الجرائد الحديثة.

تصفحتها جميعاً، وكالعهد بها كانت مليئة بالاعلانات وكل أنواع الأنباء المثيرة. وعلى غير ماتوقع، رأيت عنواناً ضخماً : «غارة جوية دعائية. المهيج* يفر من الشرطة!»

* المهيج : داعية يستهدف اثاره الشعور العام فيما يتصل بقضية سياسة.

بدأت أقرأ الخبر، فأدركت على الفور أن تلك الضجة سببها «لوم». ويبدو أنه حط بطائرته الورقية في التلال السفحية* لـ (فوجي). ومن الطبيعي أن تجذب زيارته جماهير الناس الذين مزقوا طائرته الى قطع صغيرة وأخذوها كتذكارات.

ولكن، لاتنس بأن الطائرة الورقية مصنوعة بصورة أساسية من أوراق الجرائد. لذا أسرع رجال الشرطة الى الموقع واتهموا «لوم» بادخال أدب غير مشروع. بدت الأحوال معتمة في وجهه، ولكن في تلك اللحظة ولحسن حظه، تلبدت الغيوم في السماء، وبدأت الأرض تدمدم تحت أقدامهم. هرب الحشد تاركين منحدر الجبل في رعب، وبقي «لوم» هناك وحيدا بصحبة مجموعة من رجال الشرطة اليابانيين.

وقفوا هناك يواجه أحدهم الآخر، والأرض تهتز من تحتهم. كانت هزة أرضية زرعت الرعب في قلوب الناس جميعا ولكن «لوم» البحار، لم يخطر الخوف بباله. وبمنتهى السعادة، ومن دون أن يدرك الخطر المحدق به من قوى الطبيعة العظيمة، استدار ومشى صاعدا

* التل السفحي: تل واقع عند سفح جبل.

المنحدر. وفجأة انشقت الأرض، وفصله صدع واسع في الأرض عن متعقبيه ثم بدأت السماء تمطر رمادا وسناجا*. وأصبح كل شيء قاتما مظلما.

فقد رجال الشرطة أثر «لوم» وأصبح مجرما مطلوبا.

* سناج: سخام، شجوار.

الفصل السابع عشر

حيث يظهر «لوم» فجأة ويغني لنفسه اغنية

كان ذلك كل ماستطعت أن أفهمه من الجرائد، ولكنه كاف ليقلقني. فاضافة الى فقداني لقاربي، هناك رفيقي الأول «لوم» في محنة. ولو كان اليخت معي، لدحرت «كوساكي» وذهبت لانقاذ «لوم». ولكنني هنا على ظهر هذه السفينة التجارية، وكل ماأتمناه الآن هو الوصول بسرعة الى الميناء الكندي. ولكن السفينة كانت تسير وكأنها تزحف، لذا ذهبت الى القبطان وسألته:

– «ألا يمكن زيادة السرعة؟»

– « سأكون سعيدا جدا بذلك ، ولكنني لا أملك وقادين* كافين، وقد نجحت بصعوبة جدا من الاحتفاظ بهذا الضغط بما عندي من وقادين.»

بحثت الموضوع مع فوكس، وقررنا أن نشتغل كوقادين في السفينة بأجر يومي.

لم يكن الأجر كبيرا، ولكننا سنقتل الوقت بالعمل اضافة الى أن السفينة ستشق الأمواج بسرعة أكبر.

لم يعطونا ملابس خاصة للعمل، كما أننا لا نملك ملابس اضافية لذا خلعنا كل ما علينا باستثناء شيئ سفلي بسيط قبل البدء بالعمل. من المؤكد أن ماقمنا به هو الأفضل

فقد كانت الحرارة فظيعة بجانب الأفران. ولكننا لم نقرر شيئا بخصوص أقدامنا . فقد استحال علينا الوقوف عراة الأقدام على هذه الأرضية الحارة كما أن استعمالنا للأحذية يتلفها تماما.

وبعد تفكير توصلنا الى حل، فأخذنا دلانا الأربعة ملأناها بالماء ووضعنا أقدامنا داخلها. كانت فكرة بارعة،

* وقادين: عمال الفحم: يعملون في ايقاد أفران السفن

حيث منحتنا الدلاء راحة عظيمة وكأننا نلبس الكلوش* ولو حدث وسقطت قطعة فحم مشتعلة داخل الدلو، فلن تسبب أدنى أذى.

كنت قد مارست أنواعا كثيرة من الأعمال، لذا أنجزت عملي على وجهه الأكمل. ولكنني رأيت «فوكس» يذوي. فبعد أن ذكّى نار الفرن كثيرا أصبح الفحم قشورا، ورأيته يسرد ضربات واهنة لهذه القشور بوساطة مجرفته.

صرخت به: هاي! مافائدة تلك الضربات؟ يجب أن تضرب بقوة أكبر، استعمل كل قوتك. ولكن، أين هي قوتك! لوكان «لوم» معنا.... انني أتساءل أين هو الآن؟»

وفجأة سمعت صوتا عميقا خلف ظهري: «لوم هنا ياسيدي!»

التفتُّ على عقبي فرأيت رفيقي الأول المخلص يخرج زاحفا من أحد صناديق خزن الفحم بدا مخيفا، أسود بلحيه طويلة ونحيفا كالعصا. ولكنه هو، ولشدة دهشتي فقدت الوعي.

* الكلوش: حذاء فوقي مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي

تعانقنا معا وعيوننا مغرورقة بالدموع، ثم انضم الينا للعمل وقادا. وفي مدة الاستراحة جلسنا كي نستمع لما لاقاه من مصاعب.

لقد نشرت الصحف أحداثا أقل أو أكثر من الحقيقة. فبعد أن هدأت الحال، خرج «لوم» الى المدينة. كان خوفه من الشرطة شديدا، يمشي بخطوات قلقة حذرة وينقل نظرات متيقظة هنا وهناك. وحتى وقت الغروب لم يكن آمنا بالنسبة له بسبب دوريات الحراسة الليلة في كل مكان.

ومن دون أن يدري ساقته قدماه نحو الميناء وشيئا فشيئا بدأت خطواته تتسارع حتى انطلق راكضا.

ادى ذلك الى اطلاق صيحة المطاردة. نظر خلفه فاذا بحشد كبير من رجال شرطة وصبيان الى كلاب وأشخاص عاديين في أعقابه. ومن الطبيعي أن يستمر «لوم» في انطلاقه صوب البحر. وأخيرا نجح في الوصول الى رصيف الفحم، فطمر نفسه داخل أحد الأكوام.

في ذلك الوقت كانت الباخرة التجارية التي اعتليناها تحمل الفحم. وقد استخدم لهذا الغرض حبلا متحركا حيث يغرف الفحم في دلاء ويرفعها، ثم يقلب محتواها

على ظهر الباخرة.

وبتلك الطريقة تم غرف «لوم» مع الفحم. وهنا حاول القفز من الدلو لاعتقاده بأن متعقبيه هم اللذين اقتنصوه، ولكن الدلو كان قد ارتفع عاليا، ثم قذفه داخل مستودع الفحم.

- تلمس ذراعيه وقدميه فوجدها سالمة. لذا قرر أن ينتهز فرصة وجوده هنا ويأخذ غفوة.

وبقي نائما في الفحم حتى ناديته باسمه.

سارت الأمور على أفضل وجه فقد اجتمع شمل طاقم السفينة «ريج» وأصبح بمقدورنا الآن التفكير بوسيلة تعيدنا الى أرض الوطن.

أردت تقييم الوضع، فوجدتني وفوكس ضحيتي سفينة غارقة يحمينا قانون البحر، أمّا «لوم» فانه مختف على ظهر الباخرة بلا تصريح اضافة الى أنه مطلوب كمجرم ماذا سيكون رأي قبطان الباخرة ان رآى «لوم»؟ ربما يقرر اعادته الى السلطات اليابانية أو الكندية.

ولكن لا سأحاول أن أنقذه من قبضتيها! لذا نصحته بالبقاء داخل مستودع الفحم.

قلت له موضحا: «لابد أنك تعودت المكان كما أننا

سنحضر لك الطعام ونبق على مقربة منك. سيكون الوضع أسهل بالنسبة لنا وأكثر امانا.»

وكان «لوم» مطيعا جدا.

قال: «لامانع لدى، ولكن الملل سيكون رفيقي. لقد أخذت كفايتي من النوم والراحة ولاأدري ماسأفعله لأقضي على الوقت.»

قلت: «لماذا. هناك أشياء كثيرة بالامكان عملها كنظم الشعر أو العد حتى المليون الذي يعد علاجا للأرق.»

—«أيمكنني الغناء أيها القبطان؟»

أجبته: «لاأنصح بذلك، ولكن بامكانك الغناء مع نفسك.»

بهذه الكلمات، خرجت مع فوكس في حين غاص «لوم» داخل المستودع. وقبل أن نمضي خمس دقائق في استنشاق الهواء النقي على ظهر المركب أسرع الوقادون خارجين يكاد الفزع يقتلهم ويخرجهم عن أطوارهم.

سألتهم: «ماذا حدث؟»

—«هناك عفريت في المستودع انه ينتحب كالسيرانة*.»

* السيرانه: واحدة من مجموعة كائنات اسطورية عند الاغريق لها رؤوس نسوة واجساد طيور. كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.

فهمت على الفور مايتحدثون عنه، فقلت: «انتظروا لحظة، سأنزل وأرى بنفسي.»

نزلت فوجدته مروعا فعلا كان لحنا ساحرا وليس لمثله وجود على الأرض.

ولكنني وجدت صعوبة في فهم الكلمات، أمّا الصوت فكان عميقا مرعبا. سمعت في احدى المرات فيلة تصرخ في سيلان، والحقيقة أن تلك الصرخات كانت كغناء الملائكة ان قارنتها مع ذلك الصوت.

ولاشك أنه غناء «لوم» فحين بدأت أشق طريقي خلال الفحم، اصبحت الكلمات أكثر وضوحا عند ذاك فقط وعيت الحقيقة، فها أنذا أغفل مرة أخرى عن نزعته الطبيعية في فهم المعنى الظاهري للكلام. قلت له أن يغني لنفسه، وهذا هو ماكان يفعله:

المسكين لوم، أيها الرفيق السيئ بحظك ،\
رفيق أول لطرادة، ريح كان اسمها،\
تجلس بين الفحم وأكوامه.\
تندب قدرا مؤسفا لسفينتك.

كان ذلك ماأسماه (الغناء لنفسه). ولكن لماذ استعمل كلمة «طرادة» انني اسألك. لأنه ملزم بالوزن والقافية في

الاغنية فقول الشعر ليس كقراءة تقرير. على كل حال قاطعته قائلا:

– « لقد أُسأت فهمي يا «لوم» فعندما قلت لك أُن تغني لنفسك كنت أُعني أُن لاترفع من صوتك كي لايسمعك أُحد،ها أُنت تفزع العمال وتزرع الرعب في قلوبهم أُتريد منهم أُن يكتشفوك؟»

قال: «كلا، من الأُفضل أن أُعد حتى المليون.»

عدت ثانية الى السطح وقلت للوقادين بأنه كان صوت لهيب النار في الفرن اقترب مني الميكانيكي وقال بان هذه الظاهرة نادرة الحدوث ولكنها ليست مستحيلة.

الفصل الثامن عشر

حيث يقوم لوم وفوكس بصفقة خاسرة ويحصل رنجل على فرصة لاثبات بعض الحقائق الجبرية

وأخيراً رسونا في ميناء «كندا»، فشكرنا القبطان وغادرناه متوجهين الى الشاطئ. أما عن «لوم»، فقد نجحنا في تهريبه الى الشاطئ في الليلة التالية. جلسنا نحن الثلاثة حول مائدة في احدى الحانات الهادئة وبدأنا نناقش خططنا القادمة. وأُخيرا اتفقنا في الرأي على أن

أقصر الطرق الى الوطن هو البر : من كندا الى الاسكا، ثم عبر مضيق «بيرنغ» الى «جوكوتكا». ولكن ماذا عن وسائل النقل؟ كان الموسم شتاءا في كندا، الأنهار متجمدة ولاتوجد اتصالات للسكة الحديد مع الاسكا، ومن ناحية أخرى فان رحلة بالسيارة ستكون صعبة في ذلك الجو البارد، أما في مايخص القوارب، فلن تسير حتى الربيع القادم.

قررنا أخيراً أن نشتري لأنفسنا زلاجات وبعض حيوانات السحب كالرنة* أو فريق كلاب. ذهبت للبحث عن زلاجة، واتجه «لوم» ليشتري رنة مناسبة بينما تبرع «فوكس» بشراء الكلاب.

حصلت على زلاجة جيدة، كبيرة، قوية، جذابة. الاّ أن «لوم» لم يكن محظوظا جداً، فغزالته بدت هزيلة، عجفاء ولها جلد مرقط وكعوب ضيقة جداً. ولكنني فكرت في تجربتها قبل اصدار الحكم عليها. لذا ربطناها الى الزلاجة، ثم حفزناها بالصيحات، ولكنها لم تكن لتتزحزح من مكانها.

ان كفاءتها تكون مقبولة على الجليد، أما على الأنهار

* الرنة : نوع من الأيائل.

المتجمدة، فمن الأفضل أن يقف لأن الأرجل تتزحلق هنا وهناك بلا انضباط.

أدركت أننا اذا أردنا استخدامها، فيجب أن نهيئ لها زوجين من الأحذية، ولكن أين سنجد مايلائمها؟

في تلك اللحظة، جاء في يدي لوح الكتابة الذي أخذته من اليخت. وبمساعدة «لوم» قمت بنزع الحروف النحاسية واستخدمنا المسامير نفسها لتثبيت النحاس في كعوب الرنة. لافائدة، فما يزال الحيوان الكسول رافضا العدو كما ينبغي.

ثم أتى «فوكس» بصفقته وكانت كلبا صغيراً بعض الشيئ بكمامة على فمه، وتؤكد أوراقه بأنه كان قائداً لفريق من الكلاب. يفوز بالجوائز.

ولكن وضع هذا الثنائي على جانبي عريش العربة* ليس بالمهمة السهلة. فقد تمكنا من وضع طوق النجاة في رقبة الرنة بدلاً من طوق عنقه، أمّا الكلب، فلم يهدأ أبداً، وبدأ يزمجر وينبح وصعبت سيطرتنا عليه. ولكننا أخيراً أمسكنا بزمامه وتمكنّا من ترويضه، حيث صنعنا له مقبضا مقوسا وسحبناه على جانب العريش. لقد فاتك

* عريش العربة : العمود الفاصل بين حيواني السحب.

رؤية الشجار الذي تلا ذلك! فحالما وضعنا الحيوانين سوية، بدأت الرنة تضرب الأرض بأقدامها الأربعة وتهز قرنيها، أمّا الكلب فقد صر وعوى وحاول الالتفات للناحية الأُخرى. وبنتيجة ذلك بدأ الفريق يتحرك الى الخلف.

تساءلت فيما اذا كنا سنستمر بالسير الى الوراء هكذا. الاّ أنني عزمت على مبادلة مكانيهما أولا، لأنهم يقولون في الجبر: إن ترتيب الأرقام غير أساسي أو مهم. ولكن تلك القاعدة أثبتت خطأها، فحالما عكسنا موقعي الحيوانين، انطلقت الرنة كومضة برق، أما الكلب، فصرّ على أسنانه وأطلق عواءا، وماهي الاّ لحظات حتى انطلق كقاطرة سريعة.

وبصعوبة وفقت مع «لوم» في التعلق بالزلاجة، في حين تمسك «فوكس» بحبل وظلت الزلاجة تسحبه كمرساة جليدية مسافة نصف ميل تقريباً.

لم أكن أملك «لوكا»* حينئذ، ولكن نظرة واحدة لما حولي من الأُشياء دلت على أن السرعة كانت مروعة، والقرى تخطف من أمامنا كصورة مشوشة. كانت الزلاجة

* اللوك: جهاز لقياس سرعة السفينة.

ترتج على الروابي الجليدية، والريح تصفر في آذاننا، وأرى البخار يتدفق من منخري الغزال كالمدخنة.

وبلمح البصر وصلنا حدود (الاسكا). أبصرت على مبعدة جنودا ببنادقهم وأعلامهم، فقررت أن أكبح الزلاجة وأتوقف لأننا يجب أن نتقيد بالشكليات ونبرز أوراقنا الرسمية عند عبور الحدود. لهذا السبب صرخت برفيقي:

- «خفف قليلا! ووو..... ووو!».

ولكن بلا جدوى، لم أستطع ايقافها، ومضت الى الأمام بأقصى سرعة.

في تلك اللحظة، لوح لنا أحد العساكر برايته، وأطلق الآخر وابلا من الرصاص... استلقيت في قعر الزلاجة حتى تجاوزناهم مبتعدين.

في الدقائق الخمس التالية، لمحنا فريقا للكلاب، ثم فريقين، ولكنني توقفت عن العد فهم كثر. كان السائقون يحفزون كلابهم ليزيدوا من سرعتها أما أنا فأتمنى لو هدّأ حيوانيّ من سرعتها قليلا، ولكني لم أجد طريقة لكبحهما. بعد قليل ظهرت مدينة «فورت يوكون» في المنعطف. ووقع بصري على جموع من الناس فوق النهر المتحمد،

يتصايحون، يلوحون بأيديهم، يتقافزون في الهواء. وفجأة بدأ الجليد بالانهيار.

تفرق الجمع، ورأيت على البعد وأمامي مباشرة فجوة كبيرة جدا في الجليد. كنا نقترب منها شيئا فشيئا وبسرعة قاطعة. أدركت بعد هنيهة أن الموقف حرج وخطير، فحرفت الزلاحة جانبا. وبالنتيجة انكسر عريش العربة.

انطمرنا في الجليد بعد أن انفصلنا عن قوى السحب. أمّا الرنة، فلم تقدر على كبح نفسها في الوقت المناسب، فسقطت في الماء مع الكلب والعدة.

كان من الممكن أن يغرقا لولا الطوافة التي رفعتهما الى السطح. نهضت من مكاني، فرأيتهما يتخبطان في الماء ويطلقان أصواتا مزعجة. ثم رأيت بعض المتطوعين يحضرون الوهق* ويقتنصون الرنة من قرنيها، ومن ثم يشرعون في سحبها. أتدري ماحصل بعد ذلك؟ لقد انفصل قرنا الرنة، وظهر من تحتها قرنان قصيران كقرني بقرة. وبعد أن تم انقاذها هزت نفسها ولعقت منخريها، ثم أطلقت صيحة حزينة.

* الوهق : حبل في طرفه انشوطة (عقدة) ليستعمل لاقتناص الخيل والبقر وغيرها.

ياالهي! انها تملك ذيل بقرة فعلا. لقد خدع «لوم» في كندا، ولاعجب أنها كانت عاجزة على الجليد. ولكن كيف اكتسبت سرعة مميزة كهذه؟ وظهر كذلك أن «فوكس» قد خدع هو الآخر، وبدلا من شراء كلب الأسكيمو، فرضوا عليه بالحيلة والخداع ذئبا.

إن ذئبا صغيرا ليس ممتازا ككلب، ومن جهة أخرى فان البقرة ليست جيدة كغزالة. الاّ أنهما كوّنا فريقا يضرب الأرقام القياسية في سرعته. وهنا تم اثبات الجبر، فلو كان لكلا الرقمين اشارة سالبة (−)، فالنتيجة ايجابية (+).

عندما تمت السيطرة على الوضع، اكتشفنا سبب الجمهرة والصياح، ولم يكن غير السباق الشتوي التقليدي لذلك العام، وقد فزنا بالجائزة الاولى من دون قصد.

الفصل التاسع عشر

حيث يقوم الادميرال كوساكي بمساعدة رنجل في الخروج من موقف حرج

قضينا يومين في مدينة «يوكون» لنعطي أجسادنا شيئاً من الراحة ولنمنح الحيوانين فرصة لاستعادة قواهما. وفي اليوم الثالث انطلقنا نحو أرض الوطن. اندفعنا في المسير كطلقة واخترقنا «يوكون» في ساعتين حتى وصلنا الى مضيق «بيرنغ» وتوجهنا نحو «جوكوتكا». كان سيرنا رائعاً حتى جزيرة «سانت لورنس»، حيث دخلنا في مدى

الجليد المتكسر، وانغرزنا في شق واسع.

نصبنا مخيماً فوق الجليد في انتظار ذوبانه. لسنا في عجلة من أمرنا، اضافة الى أننا نملك مؤنا كثيرة من البميكان* والسمك والدجاج المجمد، هذا الى جانب الحليب الذي نأخذه من البقرة. باختصار، لن نكون تحت خطر الموت جوعاً، ولكننا عانينا من البرد القارس. كنا نجلس متلاصقين طلباً للدفء، فليس ثمة حطب في المنطقة. كان فوكس أكثرنا تألماً، فشاربه ولحيته عبارة عن كتلة من دلاة جليدية، ولم يكن «لوم» بأحسن حال منه.

أدركت بأنني يجب أن أفعل شيئاً كي أبعث الدفء في الفريق. بقيت جالساً أستعيد في ذاكرتي أنواع الوقود: أخشاب، فحم، كيروسين، ولكن كيف السبيل الى واحد منها؟ ثم تذكرت الساحر في السيرك الذي يحول الماء الى درجة الغليان بالتحديق به فقط.

لماذا لاأحاول؟ انني أملك إرادة حديدية، وربما نظرة مغناطيسية أيضا. بهذا ركزت ناظري على كتلة جليدية. لم يحدث شيء. انها حتى لم تذُب. بيّن لي بأن مارأيته في

* البميكان: طعام مركز من اطعمة هنود اميريكا الحمر. يتألف من لحم هبر مفروم مقدد ممزوج بالدهن المذوب.

السيرك ليس الآ خدعة وتمويهاً. دعني أفكر، بماذا يذكرني؟ حيلة، خدعة بؤرة*.... وجدتها! فحالما فكرت في البؤرة، ولدت في ذهني فكرة مدهشة. تناولت فأسي وبدأتُ أُشكل كتلة من الجليد في هيئة عدسة.

قلت لرفيقي: «هيا أيها الشباب! لنضع هذه الأداة هنا.»

نهض لوم متذمراً: «مافائدة اللهو بكتل الجليد أيها القبطان؟ ألا تكفينا برودة الجو؟»

كان «فوكس» ممتعضاً أيضاً:

– «أدوات! كنت دفآناً في البحر الأحمر وأنا بقميصي فقط. وسواء بأدوات أو من دونها فانني مهما وضعت على جسدي من ملابس، فلن تتوقف أسناني عن الاصطكاك، أعطني أداة تبقِي فكي في موضعها».

صحت بهما: «كفى نقاشاً واستمعا لأمري! ارفعا كتلة الجليد! بثبات هناك! والآن، خمس درجات الى اليسار! أكثر قليلا...»

لقد طلبت منهما رفع العدسة المبتكرة الضخمة التي صنعتها من كتلة جليدية. ثم وجهت اشعة الشمس من

* حيلة. خدعة. بؤرة: تلفظ بالانكليزية على نفس الوزن - hocus - pocus - focus .

خلالها على الجليد تحت قدمي. وبلحظات بدأت خيوط الشمس تحفر فجوة في الجليد والبخار يتفجر خارجاً يطلق صفيراً عالياً.

وجهت الأشعة على ابريق الشاي، فبدأ يغلي بوقت قياسي، وطار غطاؤه عالياً بفعل البخار وبهذه الطريقة أمسكنا بخناق البرد. والآن، أصبحت الحياة محتملة. وكان الذئب والبقرة يشاركاننا الطعام. ولم يطل الوقت حتى انجرف الطوف الجليدي.

ربطنا الذئب والبقرة وبدأنا المرحلة الأخيرة من رحلتنا، وتوجهنا مباشرة الى (بيتروبا فلوفسك).

حين وصلنا، عرّفنا السلطات المحلية بشخصياتنا، فكان ترحيبهم عظيما حقاً، لقد تبين بأنهم يتتبعون اخبار رحلتنا من خلال تقارير الصحف، وكانوا قلقين جداً في الأيام القليلة الماضية حيث فقدت آثارنا في القطب الشمالي.

أحيانا يكون الوصف صعباً، فقد أطعمنا السكان حتى لتنفجر بطوننا، وأخذونا في جولات داخل المنطقة وتنافس الأهالي لينالوا شرف استضافتنا في منازلهم. أما نحن فقمنا بالمقابل بتسليم البقرة لمزرعة الحيوانات المحلية،

وقدمنا الذئب هدية لمعرض وحوش مدرسة الأطفال... وباختصار، كانت الحياة عظيمة.

ثم حل الربيع وتكسر الجليد، فبدأنا نتوق توقاً شديداً للبحر. كنا نذهب كل صباح الى ساحل البحر لصيد الفقمة* أو السمك أو لمجرد النظر الى المحيط.

وفي أحد الأيام، وبينما كنا نتجول على ساحل البحر، قرر «فوكس» تسلق أحد التلال. وفجأة سمعته يصيح بصوت مرتعش:

— «انظر أيها القبطان، انها هناك، ريج! ووو... ووو! انها هناك»

صرخ كالمجنون وكأن شيئاً أفزعه وأفقده صوابه. أسرعت مع «لوم» لمساعدته، وحين وصلناه لاهثين الى قمة التل، رأينا «ريج» تتقدم نحونا بكامل أشرعتها. أتصدق؟

انطلقنا عائدين الى المدينة. فرأيت الناس يخرجون من منازلهم ويتوجهون نحو الميناء. لم يعترض طريقنا أحد، ولكنني لمحت في وجوه كثير منهم نظرات شك.

لم أفهم شيئاً. لقد غرق اليخت أمام عيني هاتين،

* الفقمة: حيوان من لواحم البحر شبيه بالسمك ظاهراً ولكنه في الواقع لبون ومن ذوات الرئتين.

وهناك ملاحظة بهذا المعنى في سجل السفينة وهي وثيقة وليست مجرد قصة شهدتها العين اضافة الى أن «فوكس» كان في الموقع أيضاً ويمكنه تأكيدها. أما الآن، فقد بدا وكأنني تخليت عن قاربي في لحظة خطر. قلت لنفسي.

– «سنكتشف الأمر كله عندما تقترب أكثر.»

ولكنها عندما تقدمت واقتربت أكثر، بدت الأشياء مبهمة تماما وقاصية عن الفهم، حيث وقف قرب الدفة «لوم» آخر، بينما تشبث «فوكس» آخر على الحبال وبجانب الصاري إحتل «رنجل» آخر موقعاً يوجه منه الأوامر.

قلت لنفسي «مستحيل! لايمكن أن يحدث ذلك. هل هذا هو أنا حقاً؟»

دققت النظر مرة أُخرى. نعم انه أنا ولا أحد غيري. وربما هذا الشخص الواقف على الجسر ليس أنا؟ تحسست بطني. انها لي بالتأكيد، ثم ساءلت نفسي:

– «ما الذي يحدث بحق السماء؟ حالة انفصام في الشخصية؟ أو أنني أحلم قلت: «لوم» اقرصني رجاءاً.»

كنت أُراه مصعوقاً هو الآخر، ولكنه قرصني، قرصني بقسوة صرخت على أثرها. لفتت تلك الصرخة انتباه الموجودين الينا، فشكلوا حولنا دائرة وقالوا:

– «تفضل أيها القبطان وفسر لنا الموقف؟»

كانت «ريج» في كامل حلتها وهي تقترب وتتوقف بمحاذاة المرفأ. تلاشت شكوكي حين رأيت القبطان رنجل فوق السطح يقول:

– «اسمحوا لي بتقديم نفسي. القبطان رنجل وفريقه. قررت أن أُنهي رحلتي العالمية في مينائكم، ميناء (بيترو بافلوفسك)

هلّل الناس فرحين من فوق الجسر، في حين اكتفيت أنا بالوقوف هناك فاغر الفم مشدوهاً. أُريد أن أقول لك بأنني لا أؤمن بالطبيعة الخارقة، ولكنني الآن أرى فعلاً أشباحاً وأشباحاً سعيدة أيضاً.

وفوق ذلك كله، كان موقفي أحمق بين الجميع. فلو كان هذا هو رنجل، من أكون أنا؟ مخادعاً، دجالاً، مدعياً، أفاقاً؟

أمرت نفسي: «قف مكانك! وانظر ما سيحدث بعد ذلك.»

تقدم ثلاثتهم الى الشاطئ. حاولت أن أشق طريقي بين الناس اليهم، ولكن الزحام كان شديدا. ومع ذلك، سمعت أحدهم يقول ل– «رنجل» الآخر بأن هناك شخصا



آخر في المدينة يدعي أنه «رنجل».

قال من دون تفكير: «هراء! لا يمكن أن يكون أي رنجل. لقد أُغرقت قاربه في المحيط الهادي!»

توضح أمامي كل شيء بعد ما سمعته. اذن كان صديقي القديم الأُدميرال «هامورا كوساكي» ينتحل شخصيتي.

وبصعوبة استطعت الوصول اليه، فرفعت صوتي قائلاً:

– تحياتي أُيها الأُدميرال! كيف كانت الرحلة؟»

تسمر في مكانه باهتاً. وفي تلك الأثناء صعد «لوم» الى بديله، ثم لوّح بقبضته في الهواء ووجه اليه لكمة قاتلة ترنح على أثرها وسقط أرضاً، وعند ذاك رأى الجميع طوالتين* تخرجان من رجلي سرواله.

أضاف ذلك المشهد شجاعة لفوكس الذي رمى بنفسه فوق «فوكس» رقم اثنين، وأمسك بلحيته ثم سحبها من مكانها.

كان لفوكس ولوم المستعارين مميزات واضحة. فأحدهما بطوله والآخر بلحيته الكاذبة ولكن كيف لي أن

* طوالة: احدى رجلين خشبيتين يعد المشي بهما ضرباً من البراعة.

أزيل القناع عن بديلي؟

وبينما كنت أشحذ فكري، حسم القبطان المزيف الموقف بنفسه، فقد أدرك بان خدعته انجلت لذا سحب خنجره وأمسكه بكلتا يديه. وبغمضة عين مزق بطنه. كانت حركته تلك خروجا أرستقراطياً نبيلاً من المعركة. ولكنني أغمضت عينيّ بقوة، فلم تحتمل أعصابي منظراً كهذا.

تسمرت في مكاني مغمض العينين عندما سمعت فجأة الناس من حولي يضحكون، ثم انفجروا يقهقهون عالياً. فتحت عيني فأخذتني الحيرة مرة أخرى حين رأيت الثلج يتناثر في الجو مع أن السماء صافية والشمس مشرقة.

وأخيرا وقع بصري على بديلي الذي أصبح بغمضة عين نحيفاً جدا بشكل واضح. وقف بكامل عافيته والريش يتطاير خارجاً من كرشه ليتلقفه النسيم.

أخذوا الخنجر منه وبلطف وكياسة رافقوه الى السجن مع رفيقيه. وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة محاطين بجماهير مهللة سعيدة. وبعد أن هدأوا، ذهبنا لنلقي نظرة على السفينة.

بكل تأكيد لم تكن «ريج» ولكنها كثيرة الشبه بها.

وقد يلتبس عليّ أمرهما معاً لو لم أكن أعرف كل شق في ألواحها.

في اليوم التالي وصلت الباخرة المنتظرة من (فلاديفوستك)، فودعنا كل من حولنا، وغادرت مع فوكس (بيترو بافلوفسك). وكما ترى مازلت قوياً معافى، أما «فوكس»، فقد شق طريقه وأصبح الآن ممثلاً لدور (الوغد) في الأفلام، فمظهره ملائم لأدوار كهذه.

أما «لوم»، فقد ظل في مدينة (بيتروبافلوفسك)، وتولى قيادة اليخت. استلمت منه رسائل عديدة قال فيها جميعاً أنه سعيد باليخت الجديد. ولا ريب أنه لا يداني اليخت الأصلي «ريج»، ولكنه جيد على كل حال.

والآن أيها الشاب، لقد استمتعت الى القصة. سألتني ان كنت قد ركبت البحر! بكل تأكيد ياعزيزي. لقد أبحرت في طول المحيطات وعرضها. ولكن ذاكرتي وهنت منذ عهد قريب، ومع ذلك أستطيع استعادة شيء أو اثنين.

انتهى

سلسلة

روايات عالمية للفتيان

مغامرات الكابتن رنجل

الطبعة الثـــانية ١٩٨٨ م

شركة المنصور للطباعة المحـــدودة - تلفـــون ٤١٦٣١٥٢